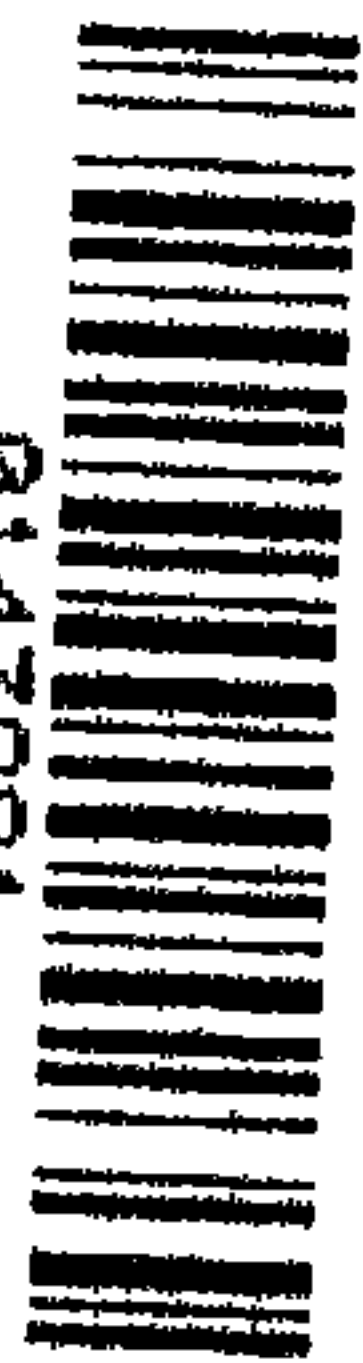


مجمع وابتسام



Bibliotheca Alexandrina

دار
الكتاب



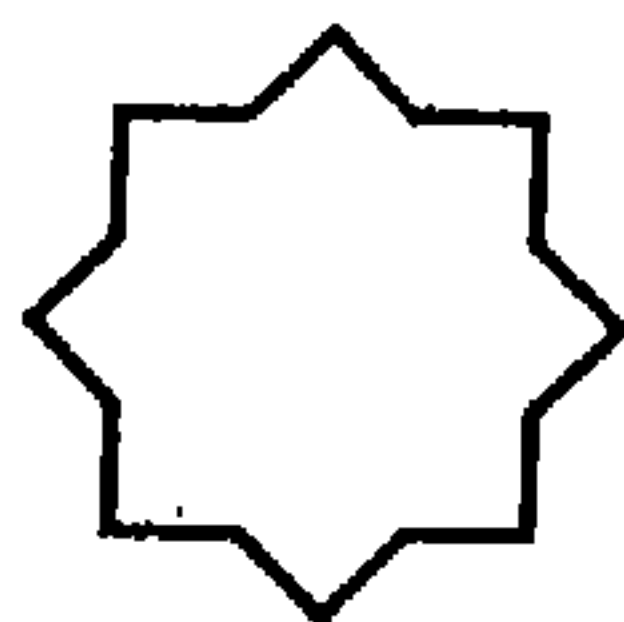
0143891

٢ ش الفجالة - القاهرة

مَجْتَمَعٌ وَابْتِسَامَةٌ

جبران خليل جبران

« إن جميع كتابات جبران تدعو إلى التفكير العميق . فإن كنت تخاف أن تفكر فالأجدر بك ألا تقرأ جبران . . . »



دار العروب

للبيستاق

٢٨ ش الفجالة - القاهرة

إلى

M. E. H.

أقدم هذا الكتاب ، وهو أول نسخة من
عاصفة حياتي ، إلى الروح النبيلة التي تحب
النسمات وتسير مع العواصف .

جبران

مقدمة

قد انتقل جبران خليل جبران في الأعوام العشرة الأخيرة من ربيع الحياة إلى صيفها ، فامت أمياله ونضجت أفكاره ، وتدرجت روحه من عالم الخيال الشعري إلى عالم أسمي وأوسع يتعانق فيه الخيال المطلق والحقيقة المجردة ، وتلتقى في جنباته أشباح العواطف الدقيقة بجبايرة المبادئ الأساسية الصحيحة .

جبران اليوم ليس بجبران الأمس ، فالشباب الحساس الذي كتب «دمعة وابتسامة» بقلم محبر بالدمع قد تحول إلى رجل قوى يكتب برؤوس الحراب المغموسة بالدماء . والفرق بين مقالة «جمال الموت» وحكاية «حفار القبور» هو الفرق بين جبران الأمس وجبران اليوم ، فالنفس اللطيفة التي كانت ترتعش لهبوب نسيمات السحر قد تشددت اليوم بالعزم فلم تعد تهتز إلا للعواصف ، فالعواصف هي من حاضر جبران بمقام النسيم من ماضيه .

ولكن لو تمعنا مليا بمجموع كتابات جبران وتأليفه ، وعلاقتها بالنهضة الأدبية الحديثة ، لوجدنا أن «دمعة وابتسامة» مقالا خاصاً بها لأنها كانت أول نغمة من نوعها في العالم العربي ، فقد خالفت بما فيها من التراكيب ودقة البيان كل ما جاء قبلها من الكتابات ، لأنها أتت كتوطئة لحركة عربية جديدة يشعر بها ويتأثر لها الطالب في مدرسته والمتأدب في

مكتبته والصحافي في إدارته .

عندما ظهرت « دمعة وابتسامة » كان الكتاب والشعراء في مصر وسوريا والمهجر يملأون الصحف والمجلات بمقالات ورسائل وقصائد عقيمة بليدة خالية من الشعور بعيدة عن القلب ، وكان أكثر الناس يحسبون كل من وزن الكلام شاعراً وكل من رتب الفقرات كاتباً ، ولكن لما ابتداء جبران بنشر « دمعة وابتسامة » غير الناس أفكارهم وعلموا للمرة الأولى أن الشاعر الحقيقي هو الذي يضرب بأصابعه السحرية على أوتار قلوبهم ، ويعيد على مسامعهم في اليقظة ما تسمعه أرواحهم في المنام . ومن ذلك الحين ابتداء فتيان الكتاب والشعراء بتقليد « دمعة وابتسامة » والنسج على منوالها ، فلم يمر عامان أو ثلاثة على ظهورها حتى كان لجبران تلاميذ وأتباع منتشرون في كل مكان من العالم العربي .

عندما طلبنا إلى جبران جمع « دمعة وابتسامة » ونشرها في كتاب ، أجابنا بيت من أحد موشحاته قائلاً :

« ذاك عهد من حياتي قد مضى بين تشيب وشكوى ونواح »
فقلنا له « ذاك عهد من حياتك قد مضى ، ولكنه لم يزل حاضراً في حياة محبيك ومريديك » .

فأجابنا « إن الشاب الذي كتب قد ترنم بأغنية علوية قبل أن يموت . قلنا له : وعلينا أن نحفظ تلك الأغنية كيلا تتلاعب بها أيدي الضياع » .

فأجابنا « افعلوا ما شئتم ، ولكن لا تنسوا أن روح ذلك الشاب قد
تقمصت في جسد رجل يحب العزم والقوة محبته للظرف والجمال ،
ويميل إلى الهدم ميله إلى البناء ، فهو صديق الناس وعدوهم في وقت
واحد » .

فقلنا له « سوف لا ننسى وإن حاولنا التناسي ففي « حفار القبور »
ما ينبهنا ويذكرنا » .

نسيب عريضة

نيويورك في ٢٤ نيسان « أبريل » سنة ١٩١٤

دمعة وابتسامة

توطئة

أنا لا أبذل أحزان قلبي بأفراح الناس ، ولا أرضى أن تنقلب الدموع التي تستدرها الكآبة من جوارحي وتصير ضحكا . أتمنى أن تبقى حياتي دمعة وابتسامة . دمعة تطهر قلبي وتفهمنى أسرار الحياة وغوامضها ، وابتسامة تدنينى من أبناء بجدتى وتكون رمز تمجيدى الآلهة — دمعة أشارك بها منسحقى القلب ، وابتسامة تكون عنوان فرحى بوجودى . أريد أن أموت شوقا ولا أحيا مللا . أريد أن تكون فى أعماق نفسى مجاعة للحب والجمال ، لأنى نظرت فرأيت المستكفئين أشقى الناس وأقربهم من المادة ، وأصغيت فسمعت تنهدات المشتاق المتمنى أعذب من رنات المثانى والمثالث .

يأتى المساء فتضم الزهرة أوراقها وتنام معانقة شوقها ، وعندما يأتى الصباح تفتح شفتيها لاقتبال قبلة الشمس ، فحياة الأزهار شوق ووصال .. دمعة وابتسامة . تبخر مياه البحر وتتصاعد ثم تجتمع وتصير غيمة ، وتسير فوق الطلول والأودية حتى إذا مالاقت نسمات لطيفة تساقطت باكية نحو الحقول ، وانضمت إلى الجداول ورجعت إلى البحر موطنها . حياة الغيوم فراق ولقاء .. دمعة وابتسامة . كذا النفس تنفصل عن الروح العام وتسير فى عالم المادة ، وتمر كغيمة فوق جبال الأحزان وسهول الأفراح فتلتقى بنسيمات الموت فترجع إلى حيث كانت . إلى بحر المحبة والجمال . إلى الله ..

حياة الحب

الربيع .. هلمى يا محبوبتى نمشى بين الطلول ، فقد ذابت الثلوج
وهبت الحياة من مراقدها وتمايلت فى الأودية والمنحدرات . سيرى معى
لنتبع آثار أقدام الربيع فى الحقل البعيد . تعالى لنصعد إلى أعلى الربى
ونتأمل فى تموجات اخضرار السهول حولها .

ها قد نشر فجر الربيع ثوبا طواه ليل الشتاء ، فاكتست به أشجار
الخوخ والتفاح فظهرت كالعرائس فى ليلة القدر ، واستيقظت الكروم
وتعانقت قضبانها كعماشر العشاق ، وجرت الجداول راقصة بين
الصخور مرودة أغنية الفرح ، وانبتقت الأزهار من قلب الطبيعة انبثاق
الزبد من البحر .

تعالى لنشرب بقايا دموع المطر من كؤوس النرجس ، ونملاً نفسينا
بأغاني العصافير المسرورة ، ونغتم استنشاق عطر النسيمات .
لنجلس بقرب تلك الصخرة حيث يختبئ البنفسج ، ونتبادل قبلات
المحبة .

الصيف .. هيا بنا إلى الحقل يا حبيبتي فقد جاءت أيام الحصاد ، وبلغ
الزرع مبلغه وأنضجته حرارة محبة الشمس للطبيعة . تعالى قبل أن تسبقنا
الطيور فتستغل أتعابنا . وجماعة النمل فتأخذ أرضنا . هلمى نجن ثمار
الأرض مثلما جنت النفس حبوب السعادة من بذور الوفاء التى زرعتها

المحبة في أعماق قلوبنا ، وغملاً المخازن من نتاج العناصر كما ملأت الحياة
أهراء عواطفنا .

هلمى يارفيقتى نفتحش الأعشاب ونلتحف السماء ونوسد رأسينا
بضغث من القش الناعم ، فترتاح من عمل النهار ونسمع مسامرة غدير
الوادي .

الخريف .. لنذهب إلى الكرمة يا محبوبتي ونعصر العنب ونوعيه في
الأجران مثلما توعى النفس حكمة الأجيال ، ونجمع الأثمار اليابسة
ونستقطر الأزهار ونستعيض عن العين بالأثر .

لنرجع نحو المساكن ، فقد اصفرت أوراق الأشجار ونثرها الهواء
كأنه يريد أن يكفن بها أزهاراً قضت لوعة عندما ودعها الصيف . تعالى
فقد رحلت الطيور نحو الساحل وحملت معها أنس الرياض ، وخلفت
الوجشة للياسمين والسيسان فبكى باقي الدموع على أديم التراب .

لنرجع ! فالجدول قد وقفت عن مسيرها ، والعيون نشفت دموع
فرحها ، والطلول خلعت باهى أثوابها . تعالى يا محبوبتي ، فالطبيعة قد
راودها النعاس فأمست تودع اليقظة بأغنية نهاوندية مؤثرة .

الشتاء .. اقتربنى يا شريكة حياتي ، اقتربنى منى ولا تدعى أنفاس
الثلوج تفصل جسمينا . اجلسى بجانبى أمام هذا الموقد ، فالنار فاكهة
الشتاء الشهية . حدثيني بما آتى الأجيال ، فأذاني قد تعبت من تأوه
الرياح وندب العناصر . أوصدى الأبواب والنوافذ ، فمرأى وجه الجو
الغضوب يحزن نفسى ، والنظر إلى المدينة الجالسة كالشكل تحت أطباق
الثلوج يدمى قلبى .. اسقى السراج زيتاً يارفيقة عمرى ، فقد أوشك أن

— ٩ —

ينطفئ ، وضعيه بالقرب منك لأرى ما كتبه الليالي على وجهك .. إيتي
بجرة الخمر لنشرب ونذكر أيام العصر .
اقتربني ! اقتربني مني يا حبيبة نفسي فقد خمدت النار وكاد الرماد
يخفيها . ضميني فقد انطفأ السراج وتغلبت عليه الظلمة .. ما قد أثقلت
أعيننا خمرة السنين .. أرمقيني بعين كحلها النعاس .. عانقيني قبل أن
يعانقنا الكرى- قبليني فالثلج قد تغلب على كل شيء إلا قبلك .. آه
ياحبيبتى ما أعمق بحر النوم . آه ما أبعد الصباح .. في هذا العالم .

حكاية

على ضفة ذلك النهر ، في ظل أشجار الجوز والصفصاف جلس ابن
زراع يتأمل في المياه الجارية بسكينة وهدوء . فتى رُئي بين الحقول حيث
يتكلم كل شيء عن الحب . حيث الأغصان تتعانق والأزهار تتمايل ،
والطيور تتشيب . حيث الطبيعة بأسرها تركز بالروح . ابن عشرين
رأى بالأمس على الينبوع صبية جالسة بين الصبايا فأحبها ، ثم علم أنها ابنة
الأمير فلام قلبه وشكا نفسه إلى نفسه ، لكن الملامة لا تميل بالقلب عن
الحب ، والعدل لا يصرف النفس عن الحقيقة ، والإنسان بين قلبه
ونفسه كغصن لين في مهب ريح الجنوب وريح الشمال .
نظر الفتى فرأى زهرة البنفسج قد نبتت بقرب زهرة الأقحوان ، ثم
سمع الهزاز يناجى الشحرور فبكى لوحده وانفراده ، ثم مرت ساعات
حبه أمام عينيه مرور الأشباح ، فقال وعواطفه تسيل مع كلماته
ودموعه :

— « هو ذا الحب يستهزىء بى . ها قد جعلنى سخرية وقادنى إلى
حيث الآمال تعد عيوباً والأمانى .. مذلة . الحب الذى عبدته قد رفع
قلبى إلى قصر الأمير وخفض منزلتى إلى كوخ الزراع ، وسار بنفسى إلى
جمال حورية تحيط بها الرجال ويحميها الشرف الرفيع .. أنا طائع أيها
الحب فماذا تريد ؟ قد اتبعتك على سبيل نارية فلذعننى اللهب . قد

فتحت عيني فلم أر غير الظلمة ، وأطلقت لساني فلم أتكلم بغير الأسي .
قد عانقني الشوق أيها الحب بمجاعة روحية لن تزول بغير قبيل الحبيب .
أنا ضعيف أيها الحب فلم تخاصمني وأنت القوي ؟ لماذا تظلمني وأنت
العادل وأنا البريء ؟ لماذا تذلني ولم يكن غيرك ناصري ؟ لماذا تتخلى عني
وأنت موجدي ؟ إن جرى دمي بغير مشيئتك فأهريقه ، وإن تحركت
قدمي على غير طرقك فشلها — افعل مشيئتك بهذا الجسد ونحل نفسي
تفرح بهذه الحقول المستأمنة بظل جناحك .. الجداول تسير إلى حبيها
البحر ، والأزهار تتنسم لعشيقها النور ، والغيوم تهبط نحو مريدها
الوادي . وأنا وبى مالا تعرفه الجداول ولا تسمع به الأزهار ولا تدركه
الغيوم ، قد رأيتني وحيداً في محنتي ، منفرداً في غرامي ، بعيداً عن التي
لا تريدني جندياً في كتائب أيها ولا ترضاني خادماً في قصرها .

وسكت الفتى هنيهة كأنه يريد أن يتعلم الكلام من خرير النهر
وحفيف أوراق الغصون ، ثم عاد فقال :

— « وأنت يا من أخاف من أمها أن أدعوها باسمها ، أيتها المحجوبة
عني بستائر العظمة وجدران الجلال . أيتها الحورية التي لا أطمع بلقائها
إلا في الأبدية حيث المساواة . يا من تطيعها الصوارم وتنحني أمامها
الرقاب وتتفتح لها الخزائم والمساجد ! قد ملكت قلباً قدسه الحب ،
واستعبدت نفساً شرفها الله ، ونخلت عقلاً كان بالأمس حراً بحرية هذه
الحقول ، فصار اليوم أسيراً بقيود هذا الغرام . رأيتك أيتها الجميلة
فعرفت سبب مجيئي إلى هذا العالم ، ولما عرفت رفعة منزلتك ونظرت إلى
حقارتي علمت أن للآلهة أسراراً لا يعرفها الإنسان ، وسبلاً تذهب

بالأرواح إلى حيث المحبة تقضى بغير الشرائع البشرية . أيقنت لما نظرت إلى عينيك أن هذه الحياة فردوس بابہ القلب البشرى ، ولما رأيت شرفك وذلى يتصارعان صراع مارد ورثبال ، علمت أن هذه الأرض لم تعد وطنألى . ظننت لما وجدتك جالسة بين نسائك كالوردة بين الرياحين ، أن عروس أحلامي قد تجسدت وصارت بشراً مثلى ، ولما تخبرت مجد أبيك وجدت أن دون اجتناء الورد أشواكا تدمى الأصابع ، وأن ما تجمعته الأحلام تفرقه اليقظة ... »

وقام إذ ذاك ومشى نحو ينبوع منخفض الجناح ، كسير القلب ، مجسما الأسى والقنوت بهذه الكلمات :

— « تعال يا موت وأنقذنى ، فالأرض التى تخنق أشواكها أزهارها لا تصلح للسكن . هلم وخلصنى من أيام تخلع الحب عن كرسى مجده وتقيم الشرف العالى مكانه . خلصنى يا موت فالأبدية أجدر ببقاء المحبين من هذا العالم . هناك أنتظر حبيبتى ، وهناك أجمع بها . » .

بلغ ينبوع وقد جاء المساء وأخذت الشمس تلم وشاحها الذهبى عن الحقل ، فجلس يذرف الدموع على حضيض وطئته أقدام ابنة الأمير وقد حنى رأسه على صدره كأنه يمنع قلبه عن الخروج .

فى تلك الدقيقة ظهرت من وراء أشجار الصفصاف صبية تجر أذيالها على الأعشاب ، ووقفت بجانب الفتى ووضعت يدها الحريرية على رأسه ، فنظر إليها نظرة نائم أيقظه شعاع الشمس . فرأى ابنة الأمير واقفة حذاءه فجثا على ركبتيه مثلما فعل موسى عندما رأى العليقة مشتعلة أمامه ، ولما أراد الكلام أرتج عليه فنابت عيناه الطافحتان بالدمع عن لسانه .

ثم عانقته الصبية وقبلت شفثيه ، وقبلت عينيه راشقة المدامع
السخينة ، وقالت بصوت ألطف من نعمة الناي :

— « قد رأيتك يا حبيبي في أحلامي ، ونظرت وجهك في وحدتي
وانقطاعي ، فأنت رفيق نفسي الذي فقدته ، ونصفي الجميل الذي
انفصلت عنه عندما حكم على بالجميء إلى هذا العالم . قد جئت سراً
يا حبيبي لألتقي بك ، وها أنت الآن بين ذراعي فلا تجزع ! قد تركت
مجد والدي لأتبعك إلى أقاصي الأرض وأشرب معك كأس الحياة والموت .
قم يا حبيبي فنذهب إلى البرية البعيدة عن الإنسان » .

ومشى الحبيبان بين الأشجار تخفيهما ستائر الليل ولا يخيفهما بطش
الأمير ولا أشباح الظلمة .

هناك في أطراف البلاد عثر رواد الأمير على هيكلين بشريين في عنق
أحدهما قلادة ذهبية ، وبقربهما حجر كتبت عليه هذه الكلمات :
« قد جمعنا الخب فمن يفرقنا ، وأخذنا الموت فمن يرجعنا ؟ » .

في مدينة الأموات

تملصت بالأمس من غوغاء المدينة ، وخرجت أمشي في الحقول الساكنة حتى بلغت أكمة عالية ألبستها الطبيعة أجمل حلاها . فوقفت وقد بانَت المدينة بكل ما فيها من البنايات الشاهقة والقصور الفخمة تحت غيمة كثيفة من دخان المعامل .

جلست أتأمل عن بعد في أعمال الإنسان فوجدت أكثرها عناء ، فحاولت في قلبي ألا أفكر بما صنعه ابن آدم ، وحولت عيني نحو الحقل ، كرسى مجد الله فرأيت في وسطه مقبرة ظهرت فيها الأجداث الرخامية المحاطة بأشجار البسرو .

هناك بين مدينة الأحياء ومدينة الأموات جلست أفكر .. أفكر في كيفية العراك المستمر والحركة الدائمة في هذه ، وفي السكينة السائدة والهدوء المستقر في تلك . من الجهة الواحدة آمال وقنوط ، ومحبة وبغضة ، وغنى وفقر ، واعتقاد وجحود ، ومن الأخرى تراب في تراب تقلب الطبيعة بطنه ظاهراً وتبدع منه نباتاً ثم حيواناً ، وكل ذلك يتم في سكينة الليل .

بيناً أنا مستسلم لعوامل هذه التأملات ، استلقت ناظري جمع غفير يسير الهويناء تتقدمه الموسيقى وتملاً الجو ألحاناً محزنة .. موكب جمع بين الفخامة والعظمة وآلف بين أشكال الناس . جنازة غني قوى .. رفات

ميت تتبعها الأحياء وهم يكون ويولولون ويشون باهواء الصراخ
والعويل .

بلغوا الجبانة فاجتمع الكهان يصلون ويبخرون وانفرد الموسيقيون
ينفخون الأبواق ، وبعد قليل انبرى الخطباء فأبتوا الراحل بمنتقيات
الكلام ، ثم الشعراء فرثوه بمنتخبات المعاني ، وكل ذلك كان يتم بتطويل
ممل . وبعد قليل انقشع الجمع عن جدث تسابق في صنعه الحفارون
والمهندسون وحوله أكاليل الأزهار المنمقة بأيدي المتقنين .

رجع الموكب نحو المدينة وأنا أنظر من بعيد وأفكر ، ومالت الشمس
نحو الغروب ، واستطالت خيالات الصخور والأشجار وأخذت الطبيعة
تخلع أثواب النور .

في تلك الدقيقة نظرت فرأيت رجلين يقلان تابوتا خشبياً ، وراءهما
امرأة ترتدى أظماراً بالية وهي حاملة على منكبها طفلاً رضيعاً ، وبجانبا
كلب ينظر إليها تارة وإلى التابوت أخرى — جنازة فقير حقير وراءها
زوجة تذرف دموع الأسى ، وطفل يبكي لبكاء أمه ، وكلب أمين يسير
وفي مسيره حزن وكآبة .

وصل هؤلاء إلى المقبرة وأودعوا التابوت حفرة في زاوية بعيدة عن
الأجداث الرخامية ، ثم رجعوا بسكينة مؤثرة والكلب يلتفت نحو محط
رحال رفيقه حتى اختفوا عن بصرى وراء الأشجار .

فالتفت إذ ذاك نحو مدينة الأحياء وقلت في نفسي : تلك للأغنياء
الأقوياء . ثم نحو مدينة الأموات وقلت : هذه للأغنياء الأقوياء فأين
موطن الفقير الضعيف يا رب ؟

قلت هذا ونظرت نحو الغيوم المتلبدة المتلونة أطرافها بذهب من أشعة الشمس الجميلة ، وسمعت صوتاً من داخل يقول .. هناك .

موت الشاعر حياته

خيم الليل بجنحه فوق المدينة وأبسها الثلج ثوبا ، وهزم البرد ابن آدم من الأسواق فاخْتبأ في أوكاره ، وقامت الأرياح تتأوه بين المساكن كمؤبن وقف بين القبور الرخامية يرثى فريسة الموت .
وكان في أطراف الأحياء بيت حقير تداعت أركانه وأثقلته الثلوج حتى أوشك أن يسقط ، وفي إحدى زوايا ذلك البيت فراش بال عليه محتضر ينظر إلى سراج ضعيف يغالب الظلمة فتغلبه . فتى في ربيع العمر قد علم بقرب أجل اعتاقه من قيود الحياة فصار ينتظر المنية وعلى وجهه المصفر نور الأمل ، وعلى شفثيه ابتسامة محزنة . شاعر جاء ليفرح قلب الإنسان بأقواله الجميلة يموت جوعاً في مدينة الأحياء الأغنياء . نفس شريفة هبطت مع نعم الآلهة لتجعل الحياة عذبة ، تودع دنيانا قبل أن تبتسم لها الإنسانية . منازع يلفظ أنفاسه الأخيرة وليس بقربه سوى سراج كان رفيق وحدته ، وأوراق عليها خيالات روحه اللطيفة .
جمع ذلك الفتى المنازع بقايا قوة قاربت الفناء ، ورفع يديه نحو العلاء وحرك أجفانه الذابلة كأنه يريد أن يخرق بنظراته الأخيرة سقف ذلك الكوخ البالي ليرى النجوم من وراء الغيوم ثم قال :
تعالى أيتها المنية الجميلة فقد اشتاقتك نفسى . اقترنى وحلى قيود المادة

فقد تعبت من جرّها . تعالى إلى يا أيتها المنية الحارة وأنقذيني من بين البشر
الذين يحسبونني غريباً عنهم لأنى أترجم ما أسمع من الملائكة إلى لغة
البشر . أسرعى نحوى فقد تخلى عنى الإنسان وطرحنى فى زوايا النسيان
لأنى لم أكن طامعاً بالمال نظيره ، ولا باستخدام من هو أضعف منى .
تعالى إلتى أيتها المنية العذبة وخذينى فأولادى بجدتى لا يحتاجونى . ضمينى
إلى صدرك المملوء محبة . قبلى شفتى التى لم تذق طعم قبلة الوالدة ولا
لمست وجنة الأخت ولا لثمت ثغراً المحبوبة . أسرعى وعانقينى يا حبيبتى
المنية .

انتصب إذ ذاك بجانب فراش المنازع طيف امرأة ذات جمال غير
بشرى ، ترتدى ثوباً ناصعاً كالثلج ، وتحمل بيدها إكليل زنابق من نبت
الحقول العلوية ، ثم دنت منه وعانقته وأغمضت عينيه كى يراها بعين
نفسه ، وقبلت شفّته قبلة محبة .. قبلة تركت على شفّته ابتسامة
اكتفاء .

فى تلك الدقيقة أصبح ذلك البيت خالياً إلا من التراب وبعض أوراق
منشورة فى زوايا الظلمة .

مرت الأجيال وسكان تلك المدينة غرقى فى سبات الجحود
والإهمال ، ولما استفاقوا وراأت عيونهم فجر المعرفة أقاموا لذلك الشاعر
تمثالاً عظيماً فى وسط الساحة العمومية ، وعيدوا له فى كل عام عيداً ..
آه ما أجهل الإنسان !

بنات البحر

في أعماق البحر الذي يحيط بالجزائر القريبة من مطلع الشمس ..
هنالك في الأعماق حيث الدر الكثير ، جثة فتى هامة بقربها بنات البحر
ذوات الشعور الذهبية ، قد جلسن بين بنات المرجان ينظرن إليها بعيونهن
الزرقاء الجميلة ، ويتحدثن بأصوات موسيقية حديثاً سمعته اللجة فحملته
الأمواج إلى الشواطئ فجاء به النسيم إلى نفسى .

قالت واحدة : « هذا بشرى هبط بالأمس إذ كان البحر حانقاً » .
فقالت الثانية : « لم يكن البحر حانقاً ولكن الإنسان — وهو الذي
يدعى بأنه من سلالة الآلهة — كان في حرب حامية أهرقت فيها الدماء
حتى صار لون الماء قرمزياً ، وهذا البشرى هو قاتل الحرب » .

فقالت الثالثة : « لا أدري ما هي الحرب ، ولكنى أعلم أن الإنسان
بعد أن تغلب على اليابسة طمع بالسيادة على البحر فابتدع الآلات
الغريبة ، ومخر العباب فدرى نبتون إله البحار وغضب من هذا التعدى ،
فلم ير الإنسان بدأ إذ ذاك من إرضاء مليكننا بالذبائح والهدايا ، فالأشلاء
التي رأيناها بالأمس هابطة هي آخر تقدمه من الإنسان إلى نبتون
العظيم » .

قالت الرابعة : « ما أعظم نبتون ولكن ما أقسى قلبه ! لو كنت أنا
سلطانة البحار لما رضيت بالذبائح الدموية . تعالى لنرى جثة هذا الشاب

فر بما أفادتنا شيئاً عن طائفة البشر .

اقتربت بنات البحر من جثمان الشاب وبخشن في جيوب أثوابه فعثرن على رسالة في الثوب الملاصق قلبه ، فأخذت الرسالة واحدة منهن وقرأت :

يا حبيبي ! ها قد انتصف الليل وأنا ساهرة وليس لي مسل غير دموعي ، ولا معز سوى أملى برجوغك إلي من بين مخالب الحرب ، ولا أقدر أن أفكر إلا بما قلته لي عند الوداع بأن عند كل إنسان أمانه من الدم لا بد من ردها يوماً ... لا أدري يا حبيبي ماذا أكتب ، بل أترك نفسي تسيل على الورق .. نفس يعذبها الشقاء ويعزيها الحب الذي يجعل الألم لذة والأحزان مسرة . لما وحد الحب قلبينا وصرنا نتوقع ضم جسمين تجول فيهما روح واحدة ، نادتك الحرب فاتبعتها مدفوعاً بعوامل الواجب والوطنية . ما هذا الواجب الذي يفرق المحبين ويرمل النساء ويبيتم الأطفال ؟ ما هذه الوطنية التي من أجل أسباب صغيرة تدعو الحرب لتخريب البلاد ؟ ما هذا الواجب المحتوم على القروى المسكين والذي لا يحفل به القوى وابن الشرف الموروث —؟ إذا كان الواجب ينفي السلم من بين الأمم ، والوطنية تزعج السكينة حياة الإنسان فسلام على الواجب والوطنية .. لا لا يا حبيبي لا تحفل بكلامي بل كن شجاعاً ومحباً لوطنك ، ولا تسمع كلام ابنة أعماماها الحب وأضاع بصيرتها الفراق .. إذا كان الحب لا يرجعك إلى هذه الحياة فالحب يضمني إليك في الحياة الآتية .

وضعت بنات البحر تلك الرسالة تحت أثواب الشاب وسبحن بسكينة مخزنة ، ولما بعدن قالت واحدة منهن :

« إن قلب الإنسان أقسى من قلب نبتون »

النفس

... وفصل إله الآلهة عن ذاته نفساً وابتدع فيها جمالا ، وأعطاهارقة
نسيمات السحر وعطر أزاهر الحقل ولطف نور القمر .
ووهبها كأس سرور وقال : لن تشرى منها إلا إذا نسيت الماضي ،
وأهملت الآتى ، وكأس حزن وقال : تشرىين منها فتدركين كنه فرح
الحياة .

وبث فيها محبة تفارقها مع أول تنهدة استكفاء ، وحلاوة تخرج منها مع
أول كلمة ترفع .

وأسقط عليها علماً من السماء ليرشدها إلى سبل الحق .
ووضع فى أعماقها بصيرة ترى ما لا يرى .

وابتدع فيها عاطفة تسيل مع الخيالات وتسير مع الأشباح . وألبسها
ثوب شوق حاكتة الملائكة من موجات قوس القزح ، ثم وضع فيها ظلمة
الحيرة وهى خيال النور .

وأخذ الإله ناراً من مصهر الغضب ، وريحاً تهب من صحراء الجهل ،
ورملا من على شاطئ بحر الأنانية ، وتراباً من تحت أقدام الدهور . وجبّل
الإنسان .

وأعطاه قوة عمياء تثور عند الجنون وتحمد أمام الشهوات .

ثم وضع فيه الحياة وهى خيال الموت .

وابتسم إله الآلهة وبكى ، وشعر بمحبة لا حد لها ولا مدى ، وجمع

بين الإنسان ونفسه .

ابتسامة ودمعة

لمت الشمس أذيالها عن تلك الحدائق الناضرة ، وطلع القمر من وراء الأفق وسكب عليها نوراً لطيفاً ، وأنا جالس هنالك تحت الأشجار أتأمل في انقلاب الجو من حالة إلى حالة ، وأنظر من خلايا الأغصان إلى النجوم المنشورة كالدراهم على بساط أزرق ، وأسمع من بعيد خرير جداول الوادي .

ولما استأمنت الطيور بين القضبان المورقة ، وأغمضت الأزهار عيونها وسادت السكينة ، سمعت وقع أقدام خفيفة على الأعشاب فحولت نظري ، وإذا بفتى وفتاة يقتربان مني ثم جلسا تحت شجرة غضة وأنا أراهما ولا أرى .

وبعد أن تلفت الفتى إلى كل ناحية سمعته يقول : « اجلسي بجانبى يا حبيبتى واسمعي . ابتسمي لأن ابتسامتك هي رمز مستقبلنا ، وافرحي لأن الأيام قد فرحت من أجلنا . حدثني نفسي بالشك الذي يخامر قلبك ، والشك في الحب إثم يا حبيبتى . عن قريب تصيرين سيدة هذه الأملاك الواسعة التي ينيرها ذلك القمر الفضي ، وربة هذا القصر المضاهي قصور الملوك ، تجرّك خيول المطهمة في المتنزعات وتذهب بك مركباتي الجميلة إلى المراقص والملاهي . ابتسمي يا حبيبتى كما يتسم الذهب في خزائني ، وارمقيني كما ترمقني جواهر والدي . اسمعي

يا حبيبتى فقد أبى قلبى ألا يسكب أمامك مخباته . أمامنا سنة العسل ..
سنة نصرها مع الذهب الكثير على شواطئ بحيرات سويسرا ، وفي
متنزهات إيطاليا ، وقرب قصور النيل ، وتحت أغصان أرز لبنان .
سوف تلتقين بالأميرات والسيدات فيحسدنك على حلاك وملابسك .
كل ذلك لك منى ، فهلاً رضيتِ ! آه ما أحلى ابتسامتك تحاكي ابتسام
دهرى » .

وبعد قليل رأيتهما يمشيان على مهل ويدوسان الأزهار بأقدامهما كما
تدوس قدم الغنى قلب الفقير .

غابا عن بصرى وأنا أفكر بمنزلة المال عند الحب . أفكر بالمال مصدر
شرور الإنسان وبالحب منبع السعادة والنور .

ظلمت تائهاً في مسارح هذه الأفكار حتى لمحت شبحين مرا من أمامى
وجلسا على الاعشاب . فتى وفتاة أتيا من جهة الحقول حيث أكواخ
الفلاحين في المزارع . وبعد هنيهة من سكونة مؤثرة سمعت هذا الكلام
صادراً مع تنهدات عميقة من فم مصدر : « كفكفى الدمع يا حبيبتى .

إن المحبة التى شاءت ففتحت أعيننا وجعلتنا من عبادها تهينا نعمة الصبر
والتجلد . كفكفى الدمع وتعزى لأننا تحالفنا على دين الحب ، ومن أجل

الحب العذب نحتمل عذاب الفقر ومرارة الشقاء وتباريح الفراق ، ولا بد
لى من مصارعة الأيام حتى أظفر بغنيمة تليق بأن أضعها بين يديك

تساعدنا على قطع مراحل العمر . إن المحبة يا حبيبتى — وهى الله —
تقبل منا هذه التنهدات وهذه الدموع كبخور عاطر ، وهى تكافئنا عليها

بقدر ما نستحق . أودعك يا حبيبتى فأنا راحل قبل أن يغيب القمر » .

ثم سمعت صوتاً رقيقاً تقاطعه زفرات أنفاس ملتبهة . صوت عذراء
لطيفة أودعته كل ما في جوارحها من حرارة الحب ومرارة التفرق
وحلاوة التجلد تقول « الوداع يا حبيبي » .
ثم افترقا وأنا جالس تحت أغصان تلك الشجرة تتجاذبنى أيدي
الشفقة وتتساهمني أسرار هذا الكون الغريب .
ونظرت تلك الساعة نحو الطبيعة الراقدة ، وتأملت ملياً فوجدت فيها
شيئاً لا حد له ولا نهاية .. شيئاً لا يشتري بالمال . وجدت شيئاً لا تمحوه
دموع الخريف ولا يميتته حزن الشتاء . شيئاً لا توجد به بحيرات سويسرا ولا
متنزهات إيطاليا . وجدت شيئاً يتجلد فيحيا في الربيع ويثمر في
الصيف .. وجدت فيها المحبة .

رؤيا

هناك في وسط الحقل على ضفة جدول بلورى رأيت قفصاً حبكت
ضلوعه يد ماهرة . وفي إحدى زوايا القفص عصفور ميت ، وفي زاوية
أخرى جرن جف مأوه وجرن نفذت بذوره .
فوقفت وقد امتلكتنى السكينة ، وأصغيت صاغراً كأن فى الطائر
الميت وصوت الجدول عظة تستنطق الضمير وتستفسر القلب . وتأملت
فعلمت أن ذلك العصفور الحقير قد صار ع الموت عطشاً وهو بجانب
مجارى المياه وغالبه جوعاً وهو فى وسط الحقول التى هى مهد الحياة ،
كغنى أقفلت عليه أبواب خزائنه فمات جوعاً بين الذهب .
وبعد هنيهة رأيت القفص قد انقلب فجأة وصار هيكل إنسان
شفافاً ، وتحول الطائر الميت إلى قلب بشرى فيه جرح عميق يقطر دماً
قرمزياً ، وقد حاكت جوانب الجرح شفتى امرأة حزينة .
ثم سمعت صوتاً خارجاً من الجرح مع قطرات الدماء قائلاً :
« أنا هو القلب البشرى أسير المادة ، وقتيل شرائع الإنسان التراى فى
وسط حقل الجمال ، على ضفة ينابيع الحياة أسرت فى قفص الشرائع التى
سنها الإنسان للشواعر . على مهد محاسن المخلوقات بين أيدي المحبة مت
مهملاً ، لأن ثمار تلك المحاسن ونتاج هذه المحبة قد حرما على كل ما
يشوقنى . صار كل ما يشوقنى بعرف الإنسان عاراً ، وجميع ما أشتهيه

أصبح في قضائه مذلة .
أنا القلب البشرى قد حبست في ظلمة سنن الجامعة فضعفت ،
وقيدت بسلاسل الأوهام فاحتضرت ، وأهملت في زوايا غي المدينة
فقضيت ، ولسان الإنسانية منعقد وعيونها ناشفة وهي تبتسم .
سمعت هذه الكلمات ورأيتها خارجة مع قطرات الدم من ذلك القلب
الجريح ، وبعد ذلك لم أعد أرى شيئاً ولم أسمع صوتاً فرجعت لحقيقتي .

الجمال

« أن الجمال دين الحكماء »

شاكر هنرى

يا أيها الذين حازوا في سبيل الأديان المتشعبة ، وهاموا في أودية
الاعتقادات المتباينة ، فرأوا حرية الجحود أوفى من قيود التسليم ،
ومسارج النكران أسلم من معازل الأتباع اتخذوا الجمال ديناً واتقوه ربا ،
فهو الظاهر في كمال المخلوقات ، البادى في نتائج المعقولات . انبذوا الألى
مثلوا التدين لهواً وآلفوا بين طمعهم بالمال وشغفهم بحسن المآل ، وآمنوا
بالوهية جمال كان بدء استحسانكم الحياة ، ومنبع محبتكم السعادة ، ثم
توبوا إليه فهو المقرب قلوبكم من عرش المرأة مرآة شعائركم ، والمدرب
أنفسكم في مجال الطبيعة موطن حياتكم .
ويا أيها الذين ضاعوا في ليل التقولات ، وغرقوا في لجج الأوهام ، إن
في الجمال حقيقة نافية الريب ، مانعة الشك ، ونورا باهرا يقيكم ظلمة

البطل . تأملوا في يقظة الربيع ومجىء الصبح ، إن الجمال نصيب
المتأملين .

أصغوا لأنغام الطيور ، وحفيف الأغصان ، وخرير الجدول .. إن
الجمال قسمة السامعين . انظروا وداعة الطفل ، وظرف الشاب ، وقوة
الكهل ، وحكمة الشيخ .. إن الجمال فتنة الناظرين .

تشبوا بمرجس العيون ، وورد الخدود ، وشقيق الفم .. إن الجمال
يتمجد بالمتشبيين . سبحوا لغصن القد ، وليل الشعر ، وعاج العنق ..
إن الجمال يسر بالمسبحين . كرسوا الجسد هيكلًا للحسن ؛ وقدسوا
القلب مذبحاً للحب .. إن الجمال يجازى المتعبدين .

تهللوا يا أيها الذين أنزلت عليهم آيات الجمال ، وافرحوا إذ لا خوف
عليكم ولا أنتم تحزنون .

الحروف النارية

احفروا على لوح قبري

« هنا رفات من كتب اسمه بماء »

جان كيتس

أهكذا تمر بنا الليالي ؟ أهكذا نندثر تحت أقدام الدهر ؟ أهكذا تطوينا الأجيال ولا تحفظ لنا سوى اسم نخطه على صحفها بماء بدلا من المداد ؟ أينطفئ هذا النور وتزول هذه المحبة وتضمحل هذه الأمانى ؟ أيهدم الموت كل ما نبنيه ويذرى الهواء كل ما نقوله ويخفى الظل كل ما نفعله ؟ أهذه هي الحياة ؟ هل هي ماض قد زال واختفت آثاره ، وحاضر يركض لاحقا بالماضي ، ومستقبل لا معنى له إلا إذا ما مرو صار حاضرا أو ماضيا ؟ أتزول جميع مسرات قلوبنا وأحزان أنفسنا بدون أن نعلم نتائجها ؟

أهكذا يكون الإنسان مثل زبد البحر يطفو دقيقة على وجه الماء ثم تمر نسيمات الهواء فتطفئه ويصبح كأنه لم يكن !
لا لعمرى فحقيقة الحياة حياة . حياة لم يكن ابتداءؤها في الرحم ولن يكون منتهاها في اللحد . وما هذه السنوات إلا لحظة من حياة أزلية أبدية . هذا العمر الدنيوى مع كل ما فيه هو حلم بجانب اليقظة التى ندعوها الموت الخفيف ، حلم ولكن ما رأيناه وفعلناه فيه يبقى ببقاء الله .

فالأثير يجعل كل ابتسامة وكل تنهدة تصعد من قلوبنا ويحفظ صدى كل قبلة مصدرها المحبة . والملائكة تحصى كل دمعة يقطرها الحزن من مآقينا وتعيد على مسمع الأرواح السابحة في فضاء اللانهاية كل أنشودة ابتدعها الفرح من شواعرنا .

هناك في العالم الآتى سنرى جميع تموجات شواعرنا واهتزازات قلوبنا ، وهناك ندرك كنه ألو هيتنا التي نحتقرها الآن مدفوعين بعوامل القنوط . الضلال الذي ندعوه اليوم ضعفاً سيظهر في الغد كحلقة كيائها واجب لتكملة سلسلة حياة ابن آدم .

الأتعاب لا تكافأ عليها الآن ستحيا معنا وتذيع مجدنا .

الأرزاء التي نحتملها ستكون إكليلا لفخرنا .

هذا ولو علم « كيتس » ذلك البلبل الصداح أناشيده لم تزل تبث روح محبة الجمال في قلوب البشر لقال : « احفروا على لوح قبرى — هنا بقايا من كُتب اسمه على أديم السماء بأحرف من نار » .

بين الخرائب

وشح القمر تلك الخمائل المحاطة بمدينة الشمس برقعا لطيفاً ، وظفر الهدوء بأعنة الكائنات ، وبانت تلك الخرائب الهائلة كأنها جبار يهزأ بعاديات الليالي .

في تلك الساعة انبثق من لا شيء خيالان يشبهان أبخرة متصاعدة من بحيرة زرقاء وجلسا على عمود رخامي استأصله الدهر من ذاك البناء الغريب يتأملان بمحيط يحاكي مسارح السحر . وبعد هنيهة رفع أحدهما رأسه وبصوت يشبه الصدى الذي تردده خلايا الأودية البعيدة قال : « هذه بقايا هياكل بنيتها من أجلك يا محبوبتي . وتلك رمم قصر رفعته لاستحسانك ، وقد دكت ولم يبق منها سوى أثر يحدث الأمم بمجد صرفت الحياة لتعميمه ، وعز استخدمت الضعفاء لتعظيمه . تأملي يا محبوبتي فقد تغلبت العناصر على مدينة شيدتها ، واستصغرت الأجيال حكمة رأيها ، وأضاع النسيان ملكا رفعته ، ولم يبق لي سوى دقائق المحبة التي أولدها جمالك ، ونتائج الجمال الذي أحياه حبك . بنيت هيكلا بين أضلعي للمحبة فقدسه الله ولن تقوى عليه القوات . صرفت العمر مستفسراً ظواهر الأشياء مستنطقاً أعمال المادة ، فقال الإنسان « ما أحكمه ملكا : » وقالت الملائكة « ما أصغره حكيماً : » ثم رأيتك يا محبوبتي وغنيت فيك نشيد محبة وشوق ، ففرحت الملائكة أما الإنسان

فلم ينتبه .. كانت أيام ملكي كالحواجز بين نفسي الظمآنة والروح
الجميل المستقر في الكائنات ، ولما رأيتك استيقظت المحبة وهدمت تلك
الحواجز فأسفت على عمر صرفته مستسلماً لتيارات القنوط ، حاسباً كل
شيء تحت الشمس باطلا . حبكت الدروع وطرقت التروس ، فخافتني
القبائل . ولما أنارتني المحبة احتُقرت حتى من شعبي ، ولكن عندما جاء
الموت أودع تلك الدروع والتروس التراب وحمل محبتي إلى الله .
وبعد سكينه قال الخيال الثاني : « مثلما تكتسب الزهرة عطرها
وحياتها من التراب ، كذلك تستخلص النفس من ضعف المادة وخطاها
قوة وحكمة . » .

عندئذ تمازج الخيالان وصارا خيالا واحداً وسارا . وبعد هنيهة أذاع
الهواء هذه الكلمات في تلك الأنحاء : « لا تحفظ الأبدية إلا المحبة لأنها
مثلها » ..

رؤيا

أرفع هذه الرسالة إلى الفيكونتس (س . ل)

جوابا على رسالة أكرمتني بها

مشى الشاب أمامي فاتبعت مسيره ، حتى إذا بلغنا حقلا بعيداً وقفت متأملاً الغيوم الجارية فوق خط الشفق كأنها قطع نجاج بيضاء ، والأشجار المشيرة بأغصانها العارية إلى العلاء كأنها تطلب من السماء استرجاء أوراقها الغضة ، فقلت أين نحن أيها الشباب؟ قال : في حقول الحيرة فانتبه . قلت لراجع ! لأن وحشة المكان تخيفني ومرأى النجوم والأشجار العارية يحزن نفسي . قال : اصبر ، فالحيرة بدء المعرفة . ثم نظرت فإذا بحورية تقترب منا كالحيال فصرخت مستغرباً : من هذه ؟ قال : هي مليونين ابنة جوبيتر وربة الروايات المحزنة (١) قلت : وماذا تبتغي الأحزان مني ، وأنت بجانب أيها الشاب المفرح ؟ قال : جاءت

(١) كان للفنون عند قدماء اليونان تسع معبودات « ميوز » ، وكانت كل منهن توحى إلى مريدها بحسب محبته لها وأهليته لعطاياها . وهذه اسمائهن : « ميلومين » ربة الروايات المحزنة . « بولينا » ربة الشعر والغناء . « ثاليا » ربة الشعر الهزلي . « كاليوب » ربة الفصاحة والشعر الحماسي . « أراتو » ربة الموشحات والغزل . « ترسكوري » ربة الرقص . « أورانيا » ربة علم الفلك . « كليو » ربة التاريخ . « أوترني » ربة فن الموسيقى .

لتريك الأرض وأحزانها ، من لا يرى الأحزان لا يرى الفرح . ووضعت الحورية يدها على عيني ، ولما رفعتها رأيتني منفصلاً عن شبابي مجرداً من ثوب المادة ، فقلت : أين الشباب يا ابنة الآلهة ؟ فلم تجبني بل ضمتني بجناحها وطارت بي إلى قمة جبل عال ، فرأيت الأرض وما فيها منبسطة أمامي كالصفحة ، وأسرار سكانها ظاهرة لعيني كالخطوط ، فوقفت متهيأً بجانب الحورية متأملاً خفايا الإنسان ، مستفسراً رموز الحياة . رأيت ولتيني لم أر . رأيت ملائكة السعادة تحارب أبالسة الشقاء ، والإنسان بينهما في حيرة تميل به نحو الآمال تارة والقنوط أخرى . رأيت الحب والبغض يلعبان بالقلب البشري . هذا يستر ذنوبه ويسكره بخمرة الاستسلام ويطلق لسانه بالمدح والإطراء ، وذاك يهيج خصوماته ويعميه عن الحقيقة ويغلق سامعته عن القول الصحيح . رأيت المدينة جالسة كابنة الأزقة متشبثة بأذيال ابن آدم ، ثم رأيت البرية الجميلة واقفة عن بعد تبكي من أجله .

رأيت الكهان يروغون كالثعالب ، والمسحاء الكذبة يحتالون على ميول النفس ، والإنسان يصرخ مستنجداً بالحكمة وهي نافرة عنه غضبي عليه لأنه لم يسمعها عندما نادته في الشوارع على رؤوس الأشهاد . رأيت القسوس يكثرون رفع عيونهم إلى السماء وقلوبهم مطمورة في قبور المطامع ، رأيت الفتيان يتحببون بألسنتهم ويقتربون بآمال نزقهم ، وألوهيتهم بعيدة وعواطفهم نائمة . رأيت المتشرعين يتاجرون بثرثرة الكلام بسوق الخداع والرياء ، والأطباء يلعبون بأرواح البسطاء الواثقين . رأيت الجاهل يجالس العاقل فيرفع ماضيه على عرش

المجد ، ويوسد حاضره بساط السعة ، ويمد لمستقبله فراش الفخامة .
رأيت الفقراء والمساكين يزرعون ، والأغنياء الأقوياء يحصدون
ويأكلون ، والظلم واقف هناك والناس يدعونه الشريعة . رأيت
لصوص الظلمة يسرقون كنوز العقل ، وحراس النور غرقى فى كرى
التوانى . رأيت المرأة كالقيثارة فى يدرجل لا يحسن الضرب عليها فتسمعه
أنغاماً لا ترضيه ، رأيت تلك الكتائب المعروفة تحاصر مدينة الشرف
الموروث . لكنى رأيت كتائب قد انحدرت لأنها قليلة غير متحدة .
رأيت الحرية الحقيقية تسير وحدها فى الشوارع وأمام الأبواب تطلب
مأوى والقوم يمنعونها . ثم رأيت الابتدال يسير بموكب عظيم والناس
يدعونه الحرية . رأيت الدين مدفوناً طى الكتاب والوهم قائماً مقامه .
رأيت الناس تلبس الصبر ثوب الجبانة ، وتعطى التجلد لقب التوانى ،
ويدعو اللطف باسم الخوف . رأيت المتطفل على موائد الآداب يدعى
والمدعو إليه صامتاً . رأيت المال بين أيدي المبذر شبكة شروبه ، وبين
أيدي البخيل مجلبة لمقت الناس ، وبين أيدي الحكيم لم أر مالا .
عندما رأيت كل هذه الأشياء صرخت متألماً من هذا المنظر : « أهذه
هى الأرض يا ابنة الآلهة ؟ أهذا هو الإنسان ؟ فأجابت بسكينة جارحة :
« هذه طريق النفس المفروشة شوكة وقطربا . هذا ظل الإنسان ، هذا هو
الليل وسيجىء الصباح ، ثم وضعت يدها على عيني ، ولما رفعتها
وجدتني وشبابى سائراً على مهل ، والأمل يركض أمامي .

الأمس واليوم

مشى الموسر في حديقة صرحه ومشى الهم متبعاً خطواته ، وحام القلق فوق رأسه مثلما تحوم النسور على جثة صفعها الموت حتى بلغ بحيرة تسابقت في صنعها أيدي الإنسان ، وجمعت جوانبها منطقة من الرخام المنحوت ، فجلس هناك ينظر آنا إلى المياه المتدفقة من أفواه التماثيل تدفق الأفكار من مخيلة العاشق ، وآونة إلى قصره الجميل الجالس على تلك الراية جلوس الخال على وجنة الفتاة .

جلس فجالسته الذكرى ونشرت أمام عينيه صفحات كتبها الماضي في رواية حياته ، فأخذ يتلوها والدموع تحجب عنه محيطاً صنعه الإنسان ، واللهفة تعيد إلى قلبه رسوم أيام نسجتها الآلهة حتى أبت لوعته إلا الكلام ، فقال :

« كنت بالأمس أرعى الغنم بين تلك الروابي المخضرة ، وأفرح بالحياة وأنفخ في شبابتي معلناً غبطني . وها أنا اليوم أسير المطامع يقودني المال إلى المال ، والمال إلى الانهماك ، والانهماك إلى الشقاء . كنت كالعصفور مغرداً وكالفراش متنقلاً ، ولم يكن النسيم أخف وطأة على رؤوس الأعشاب من خطوات أقدامى في تلك الحقول . وها أنا الآن سجين عادات الاجتماع أتصنع بملابسى وعلى مائدتى وبكل أعمالى من أجل إرضاء البشر وشرائعهم . كنت أود لو أنى خلقت لأتمتع بمسرات

الوجود ، ولكنى أرانى اليوم متعباً بحكم المال سبل الغم ، فصرت كالناقة المثقلة بحمل من الذهب والذهب يميته . أين السهول الواسعة ؟ أين السواقي المترنمة ؟ أين الهواء النقي ؟ أين مجد الطبيعة ؟ أين ألوهيتى ؟ قد ضيعت كل ذلك ولم يبق لى غير ذهب أحبه فيستهزىء لى ، وعييد كثرتهم فقل سرورى ، وصرح رفعته ليهدم غبظتى . كنت وابنة البدو نسير والعفاف ثالثنا ، والحب نديمنا ، والقمر رقيبنا ، واليوم أصبحت بين اللواقى يمشين ممدودات الأعناق غامزات العيون ، الشاريات الحسن بالسلاسل والمناطق ، البائعات الوصل بالأساور والخواتم . كنت والفتيان نخطر بين الأشجار كسرب الغزلان نشترك بإنشاد الأغاني ، نقتسم ملذات الحقول ، واليوم صرت بين القوم كالنعجة بين الكواسر ، أمشى فى الشوارع فتنتفح على عيون البغض ويشار إلى بأصابع الحسد . وإن ذهبت إلى المنتزهات لا أرى غير وجوه كالحة ورؤوس شائخة . بالأمس أعطيت الحياة وجمال الطبيعة واليوم سلبتهما . بالأمس كنت غنيا بسعادتى واليوم أصبحت فقيراً بمالى ، وبالأمس كنت ونعاجى مثل ملك رؤوف ورعية واليوم صرت لدى الذهب كالعبد المتصاغر أمام السيد المظلوم .. ما كنت أحسب أن المال يطمس عين نفسى ويقودها إلى مغائر الجهل ، ولم أدر ما يحسبه الناس مجداً كان واحر قلباه جحيماً .. » .

وقام الموسر من مكانه ومشى ببطء نحو قصره متأوها مردداً : « أهذا هو المال ؟ أهذا الإله الذى صرت كاهنه ؟ أهذا ما نبتاع بالحياة من يبيعنى فكراً جميلاً بقنطار من الذهب ؟ من يأخذ قبضة من الجواهر بدقيقة محبة ؟ من يعطبنى عيناً ترى الجمال ويأخذ خزائنى ؟ » .

ولما وصل إلى باب القصر نظر نحو المدينة نظرة أرميا إلى أورشليم ،
وأوما بيده نحوها كأنه يرثيها وقال بصوت عال : « أيها الشعب السالك
في الظلمة ، الجالس في ظل الموت ، الراكض وراء التعاسة ، القاضي
بالباطل ، المتكلم بالحماقة ، إلى متى تأكل الشوك والحسك وترمي الثمار
والزهر إلى الهاوية ؟ حتى متى تسكن الوعر والخرائب تاركا بستان
الحياة ؟ لماذا ترتدى الأطمار البالية تاركا ثوب الدمقس ؟ قد انطفأ سراج
الحكمة فاسقه زيتاً ، وخرّب ابن السبيل كرم السعادة فاحرسه ، وسرق
اللص خزائن راحتك فانتبه ! » في تلك الدقيقة وقف أمام الغنى فقير ومد
يده متسولاً ، فنظر إليه وقد انضمت شفثاه المرتجفتان ، وانبسبت
سحنته المنقبضة ، وانبعث من عينيه نور لطيف . كان بالأمس الذي رثاه
بقرب البحيرة قد مر مسلماً فاقترب من المستعطي وقبله قبلة المحبة
والمساواة ، وملاً يده ذهباً ، وقال والرأفة تسيل من كلماته : « خذ
يا أخى الآن ، وعد غداً مع أترابك واسترجعوا أموالكم » . فابتسم
الفقير ابتسامة الزهرة الذابلة بُعيدَ المطر وراح مسرعاً . حينئذ دخل
الموسر إلى قصره قائلاً : كل شيء حسن في الحياة حتى المال لأنه يعلم
الإنسان أمثولة : إنما المال كالأرغن يُسمع من لا يُحسن الضرب عليه
أنغاماً لاترضيه . المال كالحب يميت من يضمن به ويحبي واهبه .

رحماك يا نفس رحماك

حتى مَ تنوحين يا نفسى وأنت عالمة بضعفى ؟ إلى متى تضججين وليس
لدى سوى كلام بشرى أصور به أحلامك ؟

انظري يا نفسى . فقد أنفقتُ عمري مصغياً لتعاليمك . تأملى
يامعدبتى فقد أتلفت جسمى متبعاً خطواتك .

كان قلبى مليكى فصار الآن عبدك ، وكان صبرى مؤنسى فغدا بك
عذولى ، كان الشاب ندىمى فأصبح اليوم لائىمى ، وهذا كل ما أوتيته من
الآلهة فمم تستزيدين وبم تطمعين ؟

قد أنكرت ذاتى ، وتركت ملاذ حياتى ، وغادرت مجد عمري ولم
يبق لى سواك ، فاقضى على بالعدل فالعدل مجدك ، أو استدعى الموت
واعتقى من الأسر معنك .

رحماك يا نفس فقد حملتنى من الحب مالا أطيعه . أنت والحب قوة
متحدة ، وأنا والمادة ضعف متفرق . وهل يطول عُراك بين قوى
وضعيف ؟ رحماك يانفس فقد أريتنى السعادة عن بعد شاسع .. أنت
والسعادة على جبل عال ، وأنا والشقاء فى أعماق الوادى ، وهل يتم لقاء
علو ووطوءة ؟

رحماك يانفس . فقد أبنت لى الجمال وأخفيتته . أنت والجمال فى
لنور وأنا والجهل فى ظلمة ، وهل يمتزج النور بالظلمة ؟

أنت يا نفس تفرحين بالآخرة قبل مجيء الآخرة ، وهذا الجسد يشقى
بالحياة وهو في الحياة .
أنت تسيرين نحو الأبدية بسرعة وهذا الجسد يخطو نحو الفتاء ببطء ، فلا
أنت تتمهلين ولا هو يسرع ، وهذا يا نفس منتهى التعاسة .
أنت ترتفعين نحو العلو بجاذب السماء ، وهذا الجسد يسقط إلى تحت
بجاذبية الأرض ، فلا أنت تعزينه ولا هو يهئك ، وهذه هي البغضاء .
أنت يا نفس غنية بحكمتك وهذا الجسد فقير بسليقته ، فلا أنت
تساهلين ولا هو يتبع ، وهذا أقصى الشقاء .
أنت تذهبين في سكينة الليل نحو الحبيب وتمتعين منه بضممة وعناق ،
وهذا الجسد يبقى أبداً قتيل الشوق والتفريق .
رحماك يا نفس رحماك .

الأرملة وابنها

هجم الليل مسرعاً على شمال ، مستظهاً على نهار تساقطت فيه الثلوج
على تلك القرى المحيطة بوادي قاديشا^(١) ، جاعلة تلك الحقول
والهضاب صفحة بيضاء ترسم عليها الأرياح خطوطاً تمحوها الأرياح
وتتلاعب بها العواصف ، مازجة الجو الغضوب بالطبيعة الهائلة .
اختبأ الإنسان في منازلها ، والحيوان في مرايضه ، وسكنت حركة كل
ذئب نسمة حية ، ولم يبق غير برد قارس ، وزمهير هائج ، وليل أسود
مخيف ، وموت قوى مريع .

وكان في منزل منفرد بين تلك القرى امرأة جالسة أمام موقد
تنسج الصوف رداء ، وبقرها وحيداً ينظر تارة إلى أشعة النار
وطوراً إلى وجه أمه الهادئ . في تلك الساعة عصفت الأرياح
بشدة وهزت أركان ذلك البيت ، فذعر الصبي واقترب من أمه
محتمياً بمخونها من غضب العناصر ، فضمته إلى صدرها
وقبعته ، ثم أجلسته على ركبتيها وقالت : « لا تجزع يا ابني

(١) وادي قاديشا أي وادي القديسين ، سمي بهذا الاسم إذ كان ملجأ الزاهدين
ومأوى النساك الهارين من شقاء العالم وضجة الاجتماع ، حيث كانوا يجدون الكهوف
المخروقة بيد الطبيعة ، والسكينة المألقة تلك الأماكن ، وهو واد عميق كثيراً ما ترغب
الشمس في أن تفوز بنظرة من جميعه نظراً لعمقه واتساعه . وإذ كأنه جرح بليغ في صدر
لبنان خرقة ناب الدهر غدرأ بعد أن كان صديقاً صدوقاً .

فالتبيعة تريد أن تعظ الإنسان مظهره عظمتها تجاه صغره ، وقوتها بجانب ضعفه . لا تخف يا ولدى فمن وراء الثلوج المتساقطة والغيوم المتلبدة والأرياح العاصفة روح قدوس كلى عالم بما تحتاجه الحقول والآكام . من وراء كل شيء كوة ناظرة إلى حقارة الإنسان بعين الشفقة والرحمة . لا تجزع يا فلذة كبدى فالتبيعة التى ابتسمت فى الربيع وضحكت فى الصيف وتأوهت فى الخريف تريد أن تبكىنى الآن ، ومن دموعها الباردة تستقى الحياة الرابضة تحت أطباق الثرى . نم يا ولدى ففى الغد تستيقظ وترى السماء صافية الأديم ، والحقول لابسة رداء الثلج الناصع مثلماً ترتدى النفس ثوب الظهر بعد مصارعة الموت . نم يا وحيدى فوالدك ناظر الآن إلينا من مسارح الأبدية ، وحبذا عاصفة وثلوج تقربنا من ذكر النفوس الخالدة . نم يا حبيبى فمن هذه العناصر المتحاربة بعنف سوف نجنى الأزهار الجميلة عندما يجيء نيسان ، كذا يا ابنى لا يستثمر المحبة إلا بعد بعاد أليم ، وصبر مر وقنوط متلف . نم يا صغيرى فسوف تأتى الأحلام العذبة إلى نفسك غير خائفة من هيبة الليل وبطش البرد .

ونظر الصبى إلى أمه وقد كحل النعاس عينيه وقال : « لقد أثقل أجفانى الكرى يا أماه وأخاف أن أنام قبل تلاوة الصلاة . فعانقته الأم الحنونة ونظرت من وراء الدموع . إلى وجهه الملائكى ثم قالت : « قل معى يا ولدى أشفق يا رب على الفقراء وارحمهم من قساوة البرد القارس واستر جسومهم العارية بأيديك . انظر إلى اليتامى النائمين فى الأكواخ وأنفاس الثلج تكلم أجسامهم . اسمع يا رب نداء الأرامل القائمت فى الشوارع بين مخالب الموت وأظفار البرد . امدد يدك يا رب إلى قلب الغنى

وافتح بصيرته ليرى فاقة الضعفاء المظلومين . ارفق يا رب بالجائعين
الواقفين أمام الأبواب في هذا الليل الظلوم ، واهد الغزباء إلى المآوى
الدافئة وارحم غربتهم . انظر يا رب إلى العسافير الصغيرة ، واحفظ
بيمينك الأشجار الخائفة من قساوة الرياح .. ليكن هذا يا رب « .
ولما عانق الكرى نفس الصبى مددته والدته على فراشه وقبلت جبهته
بشفتين مرتجفتين ، ثم رجعت وجلست أمام الموقد تنسج له الصوف
رداء .

الدهر والأمة

على سفح لبنان بقرب جدول ينسل بين الصخور كأسلاك فضية ،
جلست راعية يحيط بها قطيع غنم مهزول يرتعى الأعشاب اليابسة بين
الأشواك الغضة — صبية تنظر نحو الشفق البعيد كأنها تقرأ مآتي الآتي على
صفحات الجو ، وقد نمق الدمع عينيها مثلما ينمق الندى أزهار النرجس ،
وفتح الأسي شفتيها كأنه يريد سلب قلبها تنهدا .

ولما جاء المساء وأخذت تلك الروابي تلتف برداء الظل ، وقف أمام
الصبية فجأة شيخ يتدلى شعره الأبيض على صدره وكتفيه ، حاملاً يمينه
منجلاً سنياً وقال بصوت يحاكي هدير الأمواج : « سلام على
سوريا » .

فوقفت الفتاة مذعورة ، وأجابته بصوت يقطعه الوجل ويصله الحزن
قائلة : « ماذا تبتغي الآن مني أيها الدهر ! » .

ثم أومأت نحو أغنامها وزادت : « هذا بقايا قطيع كان يملأ الأودية .
هذه فضلة مظامعك فهل جئت لتستزيد منها ؟ » .

هذه هي المسارح التي أجد بها دوس قدميك وقد كانت منبت
الخصب والرزق . كانت نعاجي ترتعى رؤوس الأزهار وتدر لبناً ذكياً ،
فها هي الآن خمص البطون تقضم الأشواك وأصول الأشجار مخافة
الفناء .

اتق الله يادهر وانصرف عني ، فقد كرهتني الحياة ذكرى مظالمك ،
وحببت إليّ الموت قساوة منجلك .

اتركني ووحدتني أرشف الدمع شرابا ، وأنتشق الحزن نسيما ،
واذهب يادهر إلى الغرب حيث القوم في عرس الحياة وعيدها ، ودعني
أنتحب في مآتم أنت عاقدتها .

فنظر الشيخ إليها نظرة الأب وقد أخفى منجله على أثوابه ، وقال :
« ما أخذت منك يا سوريا إلا بعض عطايي ، وما كنت ناهباً قط
بل مستعيراً أرد ، ووفيا أرجع . واعلمي أن لأخواتك الأمم نصيباً
باستخدام مجد كان عبدك ، وحقاً بلبس رداء كان لك . أنا والعدل
أقنومان لذات واحدة ، فلا يجمل بي سوى إعطاء أخواتك ما أعطيتك ،
ولست قادراً على تسويتكن في محبتي لأن المحبة لا تنقسم إلا على السواء .
لك يا سوريا أسوة بجاراتك مصر وفارس واليونان إذ لكل منهن قطع
يشابه قطيعك ، ومرعى نظير مرعاك . إن ماتدعيه انحطاطاً يا سوريا
أدعوه نوما واجبا يعقبه النشاط والعمل . فالزهرة لا تعود إلى الحياة إلا
بالموت ، والمحبة لا تصير عظيمة إلا بعد الفراق . »

واقترب الشيخ من الفتاة ومد يده قائلاً : « هدى يدي يا ابنة
الأنبياء » : فأخذت يده وهي تنظر إليه من وراء الدمع وقالت :
« الوداع أيها الدهر الوداع » فأجابها . « إلى اللقاء يا سوريا إلى
اللقاء » .

حينئذ اختفى الشيخ كما يختفي البرق ، فنادت الصبية أغنامها ومشت
مرددة : « هل من لقاء يا ترى هل من لقاء ؟ » .

أمام عرش الجمال

هربت من الاجتماع وهمت في ذاك الوادى الواسع متبعاً مجارى
الجدول تارة ومصغياً إلى محاورات العصافير طوراً ، حتى بلغت مكاناً
حمته الأغصان من نظرات الشمس فجلست أسامر وحدثت وأناجى
نفسى .. نفس ظائمة رأت كل ما يرى سرايا ، وكل ما لا يرى شرابا .
ولما انطلقت عاقلتي من محبس المادة إلى فضاء ، التفت فإذا بفتاة واقفة
على مقربة منى . حورية لم تتخذ من الحل والحلل سوى غصن من الكرمة
تستر به بعض قامتها ، وإكليل من الشقيق يجمع شعرها الذهبى .. إذ
علمت من نظراتى أننى صرت مسلوب الفجأة والحيرة ، قالت : « أنا
ابنة الأحراج فلا تجزع » . قلت وقد زدت حلاوة صوتها بعض رمقى :
« وهل يقطن من كان مثلك برية سكنتها الوحشة والوحوش ؟ قولى لى
بعيشك من أنت ومن أين أتيت ؟ » فقالت وقد جلست على الأعشاب :
« أنا رمز الطبيعة . أنا العذراء التى عبدها آباؤك فبنوا لها مذابح وهياكل
فى بعلبك وافقا وجبيل . قلت « تلك الهياكل قد انهدمت وعظام أجدادى
ساوت أديم الأرض ولم يبق من آثار آلهتهم وأديانهم سوى صفحات قليلة
فى بطون الكتب » قالت « بعض الآلهة يعيون بحياة عبادهم ويموتون
بموتهم . وبعضهم يحيون بألوهية أزلية أبدية . أما ألوهيتى فهى مستمدة
من جمال تراه كيفما حولت عينيك ... جمال هو الطبيعة بأسرها .. جمال

كان بدء سعادة الراعى بين الربى والقروى بين الحقول والعشائر الرحل بين الجبل والساحل . جمال كان للحكيم مرقاة إلى عرش حقيقة لا تجرح « قلت ودقات قلبي تقول ما لا يعرفه اللسان: » إن الجمال قوة مخيفة رهيبة « . فقالت وعلى شفيتها ابتسامة الأزهار وفي نظرها أسرار الحياة : « أنتم البشر تخافون كل شيء حتى ذواتكم . تخافون السماء وهى منبع الأمن . تخافون الطبيعة وهى مرقد الراحة ، وتخافون إله الآلهة وتعزون إليه الحقد والغضب وهو إن لم يكن محبة ورحمة لم يكن شيئاً » .

وبعد سكينه مازجتها الأحلام اللطيفة سألتها : « ما هذا الجمال ؟ فقد تباين الناس بتعريفه ومعرفته مثلما اختلفوا بتمجيده ومحبته » . قالت : « هو ما كان بنفسك جاذب إليه .. هو ما تراه وتود أن تعطى لا أن تأخذ .. هو ما شعرت عند ملقاه بأياد ممدودة من أعماقك لضمه إلى أعماقك .. هو ما تحسبه الأجسام محنة والأرواح منحة .. هو ألفة بين الحزن والفرح .. هو ما تراه محجوباً وتعرفه مجهولاً وتسمعه صامتاً .. هو قوة تبتدىء فى قدس أقداس ذاتك وتنتهى فى ما وراء تخيلاتك .. »

واقتربت ابنة الأحراج منى ووضعت يدها المعطرة على عيني ، ولما رفعتها رأيتنى وحيداً فى ذلك الوادى ، فرجعت ونفسى مرددة : « إن الجمال هو ما تراه وتود أن تعطى لا أن تأخذ » .

زيارة الحكمة

في هدوء الليل جاءت الحكمة ووقفت بقرب مضجعي ، ونظرت إلى نظرة الأم الحنون ومسحت دموعي وقالت : « سمعت صراخ نفسك فأتيت لأعزيها . ابسط قلبك أمامي فأملأه نوراً . سلني فأريك سبيل الحق » فقلت : « من أيتها الحكمة ، وكيف سرت إلى هذا المكان المخيف ؟ .. ما هذه الأمانى العظيمة والكتب الكثيرة والرسوم الغريبة ؟ ما هذه الأفكار التي تمر كسرب الحمام ؟ ما هذا الكلام المنظوم بالميل ، المتشور باللذة ؟ ما هذه النتائج المحزنة المفرحة ، المعانقة روحى ، المساورة . قلبى ؟ ما هذه العيون المحدقة بى ، الناظرة أعماق المنصرفه عن آلامى ؟ ما هذه الأصوات النائحة على أيامى ، المترنمة بصغرى ؟ ما هذا الشباب المتلاعب بأميالى ، المستهزىء بعواطفى ، الناسى أعمال الأمس ، الفارح بتفاهة الحال . المستتكف من بطاء الغد ؟ ما هذا العالم السائر بى إلى حيث لا أدرى ، الواقف معى موقف الهوان ؟ ما هذه الأرض الفاغرة فاها لابتلاع الأجسام المقرحة صدرها لسكنى المطامع ؟ ما هذا الإنسان الراضى بمحبة السعادة ودون وصاها الهاوية ، الطالب قبلة الحياة والموت يصفعه ، الشارى دقيقة اللذة بعام الندامة ، المستسلم للكرى والأحلام تناديه ، السائر مع سواقى الجهالة إلى خليج الظلمة ؟ ما هذه الأشياء أيتها الحكمة ؟ ... !

فقلت : « أنت تريد أيها البشري أن ترى هذا العالم بعين إله ، وتريد أن تفقه مكنونات العالم الآتي بفكرة بشرية وهذا منتهى حماقة . اذهب إلى البرية تجد النحلة حائمة حول الزهور ، والنسر ينقض على الفريسة . ادخل إلى بيت جارك ترى الطفل مدهوشاً بأشعة النار ، والوالدة مشغولة بأعمال منزلها . كن أنت كالنحلة ، ولا تصرف أيام الربيع ناظراً أعمال النسر . كن كالطفل وافرح بأشعة النار ودع والدتك وشأنها . كل ما تراه كان ويكون من أجلك . الكتب الكثيرة والرسوم الغربية والأفكار الجميلة هي أشباح نفوس الذين تقدموك . الكلام الذي تحوكه هو الواصل بينك وبين إخوانك البشر . النتائج المخزنة المفرحة هي البذور التي ألقاها الماضي في حقل النفس وسوف يستغلها المستقبل ... »

إن هذا الشباب المتلاعب بأميالك هو هو الفاتح باب قلبك لدخول النور . إن هذه الأرض الفاغرة فاهاهي التي تخلص نفسك من عبودية جسدك . إن هذا العالم السائر بك هو قلبك ، فقلبك هو كل ما تظنه عالماً . إن هذا الإنسان الذي تراه جاهلاً وصغيراً هو الذي جاء من لدن الله ليتعلم الفرح بالحزن ، والمعرفة من الظلمة .. » .

ووضعت الحكمة يدها على جبهتي الملتبهة وقالت :

« سر إلى الأمام ولا تقف قط فالأمام هو الكمال ، سر ولا تخش أشواك السبيل فهي لا تستطيع إلا الدماء الفاسدة » .

حكاية صديق

١

عرفته فتى ضائعاً في مسالك حياته ، محكوماً بمفاعيل شببته ، مستميتاً في إدراك غرض أمياله . عرفته زهرة لينة حملتها رياح النزق إلى لجة الشهوات . عرفته في تلك القرية صبياً شرساً يمزق بيديه أعشاش العصافير ويميت أفرانها ، ويسحق برجليه تيجان الأزهار ويبيد محاسنها . وعرفته في المدرسة يافعاً بعيداً عن الاقتباس ، قريباً من الغطرسة ، عدواً للسكينة . وعرفته في المدينة شاباً يتاجر بشرف أبيه في سوق الخسائر ، ويبدل أمواله في نوادي التهلك ، ويعطى عاقلته إلى ابنة الكرمة .

ولكني كنت أحبه . أحبه محبة يساورها الأسف ويمارزها الإشفاق . أحبه لأن منكراته لم تكن نتائج نفس صغيرة بل كانت مآتي نفس ضعيفة قانطة . النفس أيها الناس تميل عن سبل الحكمة مكرهة وتعود إليها مريدة ، وللشبية أعاصير تهب حاملة غباراً ورمالاً تملأ الأجفان فتغمضها وتعميها .. تعميها إلى أمد بعيد في أكثر المواطن . أحببت هذا الفتى وكنت مخلصاً له ، لأنني رأيت حماسة ضميره تغالب نشر سيئاته ، فتغلب تلك الحماسة بقوة عدوها لا بخيانتها .

الضمير قاض عادل ضعيف والضعف واقف في سبيل تنفيذ أحكامه .
قلت أحببته والمحبة تأتي بأشكال مختلفة ، ففي الحكمة أنا والعدل
آونة ، والأمل أحرى فمحبتى له كانت أملى باستظهار نور شمسه الوضعى
على ظلمة متاعها العرضية . على أننى كنت جاهلاً أنى وأين تتبدل
الأدرانُ بنقاوة والشراسةُ بوداعة ، والطيشُ بحكمة ، والإنسان لا يدري
كيفية انعتاق النفس من عبودية المادة إلا بعد الانعتاق ، ولا يعرف كيف
تبتسم الأزهار إلا بعد مجيء الصباح .

٢

مرت الآيات آخذة بأعناق الليالى . وأنا أذكر ذلك الفتى بغصات
مؤلمة ، وأردف لفظ اسمه بتهدات تجرح القلب وتدمى حتى وافانى
بالأمس كتاب منه قال فيه :

— تعال إلتى يا صديقى فأنا أريد أن أجمع بينك وبين فتى يسر قلبك
لقاؤه ، وتطيب نفسك بمعرفته ..

قلت : ويحى ! أريد أن يشفع صداقته المحزنة بصداقة آخر على
شاكلته ، أو لم يكن وحده أمثلة كافية لتعريف آيات الضلال ؟ وهل
يروم الآن تذليل تلك الأمثلة بآيات رفاقه كيلا يفوتنى حرف من كتاب
المادة ؟ ثم قلت : « أذهب فالنفس تجنى من العوسج تيناً بحكمتها .
والقلب يستمد من الظلمة نوراً بمحبته ..

ولما جاء الليل ذهبت فوجدت ذلك الفتى منفرداً في غرفته يقرأ كتاباً

(دمة وابتسامه)

شعريا ، فحييته مستغربا وجود الكتاب بين يديه وقلت : « أين الصديق الجديد ؟ قال هو أنا يا خليل هو أنا » ، ثم جلس بهدوء ما عهدته فيه ، ونظر إليّ وفي عينيه نور غريب يخرق الصدر ويحيط بالجوارح تلك العيون التي طالما تأملتها ولم أر فيها غير العنف والقساوة أصبحت تبعث نوراً يملأ القلب انعطافا . ثم قال بصوت حسبته صادراً من غيره : « إن ذاك الذي عرفته في الحداثة ورافقته أيام المدرسة وماشيته في الشبيبة قد مات ، وبموته ولدت أنا . أنا صديقك الجديد فخذ يدي » . أخذت يده فشعرت عند الملامسة أن في تلك اليد روحاً لطيفاً يسرى مع دماء .. تلك اليد العتيفة قد صارت لينه . تلك الأصابع التي شابته بالأمس مخالب الثمر بأعمالها أصبحت تلامس القلب برقتها . ثم قلت — وليتني أذكر غرابة ما قلت : « من أنت وكيف سرت وأين صرت ؟ هل اتخذك الروح هيكلاً فقدسك ، أم أنت تمثل أمامي دوراً شعرياً » ؟ قال : « أي يا صديقي إن الروح قد حل عليّ ، وقد سنى الحب العظيم قد جعل قلبي مذبحاً طاهراً . هي المرأة يا خليلي .. المرأة التي ظننتها بالأمس العوبة الرجل ، قد أنقذتني من ظلمة الجحيم وفتحت أمامي أبواب الفردوس فدخلت . المرأة الحقيقية قد ذهبت بي إلى أردن محبتها وعمدتنى . تلك التي احتقرت أختها بغبوتي قد رفعتني إلى عرش المجد . تلك التي دنست رفيقتها بجهلي قد طهرتني بعواطفها . تلك التي استعبدت بنات جنسها بالذهب قد حررتني بجمالها .. تلك التي أخرجت آدم الأول من الجنة بقوة إرادتها وضعفه قد أعادتني إلى تلك الجنة بحنوها وانقيادى » .

في تلك الدقيقة نظرت إليه فوجدت المدامع تتلألأ في عينيه ،

والابتسام يراود شفثيه ، وشعاع الحب يكلل رأسه ، فاقتربت منه وقبلت جبهته متبركا مثلما يقبل الكاهن صحن المذبح . ثم ودعته ورجعت مردداً قوله : « تلك التي أخرجت آدم من الجنة بقوة إرادتها وضعفه ، قد أعادتني إلى تلك الجنة بجنوها وانقيادي » .

بين الحقيقة والخيال

تحملنا الحياة من مكان إلى مكان وتنتقل بنا التقادير من محيط إلى آخر ، ونحن لا نرى إلا ما وقف عثرة في سبيل سيرنا ولا نسمع سوى صوت يخيفنا . يتجلى لنا الجمال على كرسي مجده فنقترب منه ، وباسم الشوق ندنس أذياله ونخلع عنه تاج طهره . يمر بنا الحب مكتسباً ثوب الوداعة فنخافه ونختبئ في مغائر الظلمة ، أو نتبعه ونفعل باسمه الشرور . والحكيم بيننا يحمله نيراً ثقيلاً وهو ألطف من أنفاس الأزهار وأرق من نسيمات لبنان . تقف الحكمة في منعطفات الشوارع وتنادينا على رؤوس الأشهاد فنحسبها بطلاً ونحتقر متبعيها . تدعونا الحرية إلى مائدتها لنلتذ بخمرها وأطعمتها فنذهب ونشره فتصير تلك المائدة مسرحاً للابتذال ومجالاً لاحتقار الذات . تمد الطبيعة نحونا يد الولاء وتطلب منا أن نتمتع بجمالها فنخشى سكينتها ونلتجئ إلى المدينة ، وهناك نتكاثر على بعضنا بعضاً كقطيع رأى ذئباً خاطفاً . تزورنا الحقيقة منقادة بابتسامة طفل أو قيلة محبوبة فنوصد دونها أبواب عواطفنا ونغادرها كمجرم دنس . القلب البشري يستتجد بنا والنفس تنادينا ونحن أشد صمما من

— ٥٢ —

الجهاد لا نعى ولا نفهم ، وإذا ما سمع أحد صراخ قلبه ونداء نفسه قلنا
هذا ذو جنة وتبرأنا منه .

هكذا تمر الليالي ونحن غافلون، وتصافحنا الأيام ونحن خائفون من
الليالي والأيام . نقترّب من التراب والآلهة تنتمي إلينا ، ونمر على خبز
الحياة والمجاعة تتغذى من قوانا . فما أحب الحياة إلينا وما أبعدنا عن
الحياة ..

يا خليلي الفقير

يا من ولدت على مهد الشقاء ، وريت في أحضان الذل ، وشبيت في منازل الاستبداد ، أنت الذي تأكل خبزك اليابس بالتنهد . وتشرب ماءك العكر ممزوجا بالدموع والعبرات .

يا أيها الجندي المحكوم عليه من شرائع البشر الظالمة بأن يترك رفيقته وصغاره ومحبيه ، ويذهب إلى ساحة الموت من أجل طمع يدعونه الواجب .

ويا أيها الشاعر الذي يعيش غريباً في وطنه ومجهولاً بين معارفه ، ويرضى من العيش بمضغة ومن الحطام بالحبر والورق .

ويا أيها السجين المطروح في الظلمة من أجل ذنب صغير جسّمه غي الذين يقابلون الشر بالشر ، واستغربته عاقلة الألى يرومون الإصلاح بواسطة الفساد .

وأنت أيتها المسكينة التي وهبها الله جمالا رآه فتى العصر فاتبعك وغرك وتغلب على فقرك بالذهب ، فاستسلمت له وغادرك فريسة ترتعد بين مخالب الذل والتعاسة .

أنتم يا أحبائي الضعفاء شهداء شرائع الإنسان . أنتم تعساء وتعاستكم نتيجة بغى القوى وجور الحاكم وظلم الغنى وأنانية عبد الشهوات . لا تقنطوا ، فمن مظالم هذا العالم ، من وراء المادة من وراء الغيوم ،

من وراء الأثير ، من وراء كل شيء .. قوة هي كل عدل وكل شفقة وكل
حنو وكل محبة .

أنتم مثل أزهار نبتت في الظل ، سوف تمر نسيمات لطيفة وتحمل
بذوركم إلى نور الشمس فتحيون هناك حياة جميلة .

أنتم نظير أشجار عاربه مثقلة بثلوج الشتاء ، سوف يأتي الربيع
ويكسوكم أوراقا خضراء غضة .

سوف تمزق الحقيقة غشاء الدمع الحاجب ابتساماتكم .

أنا أقبلكم يا إخوتي وأحتقر مضطهديكم .

مناحة في الحقل

عند الفجر قبيل بزوغ الشمس من وراء الشفق ، جلست في وسط الحقل أناجى الطبيعة . في تلك الساعة المملوءة طهراً وجمالاً بينما كان الإنسان مستتراً طى لحف الكرى تتابه الأحلام تارة واليقظة أخرى ، كنت متوسداً الأعشاب أستفسر كل ما أرى عن حقيقة الجمال ، واستحكي ما يرى عن جمال الحقيقة .

ولما فصلتُ تصوراتي بينى وبين البشريات ، وأراحت تخيلاتى برقع المادة عن ذاتى المعنوية ، شعرت بنور روحى يقربنى من الطبيعة ويبين لى غوامض أسرارها ويفهمنى لغة مبتدعاتها .

وبينما كنت على هذه الحالة مر النسيم بين الأغصان متهداً تنهداً يتيم يائس ، فسألت مستفهماً : « لماذا تنهد يا أيها النسيم اللطيف ؟ » فأجاب . لأننى ذاهب نحو المدينة مدحوراً من حرارة الشمس . إلى المدينة حيث تتعلق بأذيالى النقية مكروبات الأمراض ، وتتشبث بى أنفاس البشر السامة . من أجل ذلك ترانى حزينا .

ثم التفت نحو الأزهار فرأيتها تذرف من عيونها قطرات الندى دمعاً ، فسألت : « لماذا البكاء يا أيها الأزهار الجميلة ؟ » فرفعت واحدة منهن رأسها اللطيف وقالت : « نبكى لأن الإنسان سوف يأتى ويقطع أعناقنا ويذهب بنا نحو المدينة ويبيعنا كالعبيد ونحن حرائر ، وإذا ما جاء المساء

وذبلنا رمى بنا إلى الأقدار . كيف لا نبكى ويد الإنسان القاسية سوف
تفصلنا عن وطننا الحقل .

وبعد هنيهة سمعت الجدول ينوح كالثكلى فسألته : « لماذا تنوح بأبيها
الجدول العذب ؟ فأجابني : « لأننى سائر كرهاً إلى المدينة ، حيث
الإنسان يحتقرنى ويستعيز عني بعصير الكرمة ويستخدمنى لحمل
أدرانه . كيف لا أنوح وعن قريب تصبح نقاوتى وزراً ، وطهارتى
قذراً .

ثم أصغيت فسمعت الطيور تغنى نشيداً محزناً يحاكي الندب ،
فسألته : « لماذا تندين يأتها الطيور الجميلة » فاقترب منى عصفور
ووقف على طرف الغصن وقال : « سوف يأتى ابن آدم حاملاً آلة
جهنمية تفتك بنا فتك المنجل بالزرع ، فنحن نودع بعضنا بعضاً لأننا
لا ندرى من منا يتملص من القدر المحتوم . كيف لا نندب والموت يتبعنا
أينما سرنا .

طلعت الشمس من وراء الجبل وتوجت رؤوس الأشجار بأكاليل
ذهبية ، وأنا أسأل ذاتى لماذا يهدم الإنسان ما تبنيه الطبيعة .

بين الكوخ والقصر

١

جاء المساء وشعشت أنوار الكهربائية في صرح الغنى ، فوقف الخدام على الأبواب بملابس مخملية وعلى صدورهم الأزرار اللامعة ينتظرون مجيء المدعوين . صدحت الموسيقى بأنغامها المطربة ، وتقاطر الأشراف والشريفات تجرهم الخيول المطهمة نحو ذلك القصر فدخلوا يرفلون بالملابس المزركشة ، ويجرون أذيال العزة والفخر .

قام الرجال ودعوا النساء للرقص فوقفن واخترن الأعزاء . وأصبحت تلك المقصورة روضة تمر بها نسيمات الموسيقى فتتايل أزهارها تيهاً وإعجاباً .

انتصف الليل فمدت سفرة عليها كل ما عز من الفاكهة وطاب من الألوان ، ودارت الكؤوس على الجميع فلعبت بنت الكرمة في عقولهم حتى ألبتهم .

جاء الصباح وفرق شمل أولئك الأشراف الأغنياء بعد أن اضناهم السهر ، وسرقت عاقلتهم الخمرة ، وأتعبهم الرقص ، وأذبلهم القصف ، وذهب كل إلى فراشه الناعم .

بعد أن غابت الشمس وقف رجل يرتدى أثواب الشغل أمام باب
كوخ حقير وقرع ، ففتح له ودخل وحيى مبتسماً ، ثم جلس بين صبية
يصطلون بقرب النار . وبعد ردهة هيأت زوجته العشاء فجلسوا جميعاً
حول مائدة خشبية يلتهمون الطعام ، ثم قاموا وجلسوا بقرب مسرجة
ترسل سهام أشعتها الصفراء الضعيفة إلى كبد الظلمة .
وبعد مرور الهزيع الأول من الليل قاموا بسكينة كلية ، واستسلموا
لملك الرقاد .

جاء الفجر فهب ذلك الفقير من نومه وأكل مع صغاره وزوجته قليلاً
من الخبز والحليب ، ثم قبلهم وحمل على كتفه معولاً ضخماً وذهب إلى
الحقل ليسقيه من عرق جبينه ويستثمر ويطعم قواه أولئك الأغنياء
الأقوياء الذين صرفوا ليلة أمس بالقصف والخلاعة .
طلعت الشمس من وراء الجبل ، وثقلت وطأة الحر على رأس ذلك
الحارث ، وأولئك الأغنياء ما يرحوا خاضعين لسنة الكرى الثقيل في
صروحهم الشاهقة .

هذه مأساة الإنسان المستتبه على مسرح الدهر ، وقد كثر المتفرجون
المستحسنون وقل من تأمل وعقل .

طفلان

وقف الأمير على شرفة القصر ونادى الجموع المزدحمة في تلك الحديقة ، وقال : « أبشركم وأهنئ البلاء . فالأميرة قد وضعت غلاماً يحبى شرف عائلتى المجيدة ، ويكون لكم فخراً وملاًذاً وورثاً لما أبقته أجدادى العظام . افرحوا وتهللوا فمستقبلكم صار مناطاً بسليل المعالى » .

فصاحت تلك الجموع وملاّت الفضاء بأهازيج الفرح ، متأهلة بمن سوف يرى على مهد الترف ، ويشب على منصة الإعزاز ، ويصير بعد ذلك حاكماً مطلقاً برقاب العباد . ضابطاً بقوته أعنة الضعفاء ، حرياً باستخدام أجسادهم وإتلاف أرواحهم . من أجل ذلك كانوا يفرحون ويغنون الأناشيد ويعاقرون كاسات السرور .

وبينا سكان تلك المدينة يمجدون القوى ويحتقرون ذواتهم ويتغنون باسم المستبد ، والملائكة تبكى على صغرهم ، كان فى بيت حقير مهجور امرأة مطروحة على سرير السقام تضم إلى صدرها الملتهب طفلاً ملتفاً بأقمطة بالية .

صبية كتبت لها الأيام فقراً ، والفقر شقاء فأهملت من بنى الإنسان . زوجة أمات رفيقها الضعيف ظلم الأمير القوى ، وحيدة بعثت إليها الآلهة فى تلك الليلة رفيقاً صغيراً يكبل يديها دون العمل والارتزاق .

ولما سكنت جلبة الناس في الشوارع ، وضعت تلك المسكينة طفلها على حضنها ، ونظرت في عينيه اللامعتين وبكت بكاء مرأ كأنها تريد أن تعمده بالدموع السخينة ، وقالت بصوت تتصدع له الصخور : « لماذا جئت يا فلذة كبدي من عالم الأرواح ، أطمعاً بمشاطرتي الحياة المرة ؟ أرحمة بضعفى ؟ لماذا تركت الملائكة والفضاء الواسع وأتيت إلى هذه الحياة الضيقة المملوءة شقاء ومذلة ؟ ليس عندي يا وحيدى إلا الدموع ، فهل تتغذى بها بدلاً من الحليب ؟ وهل تلبس ذراعى العاريتين عوضاً عن النسيج ؟ صغار الحيوان ترعى الأعشاب وتبيت في أوكارها آمنة ، وصغار الطير تلتقط البذور وتنام بين الأغصان مغبوطة ، وأنت يا ولدى ليس لك إلا تنهداتى وضعفى .

حينئذ ضمت الطفل إلى صدرها بشدة كأنها تريد أن تجعل الجسدين جسداً واحداً ، ورفعت عينيها نحو العلاء وصرخت « ارفق بنا يا رب » .

ولما انقشعت الغيوم عن وجه القمر ، دخلت أشعته اللطيفة من نافذة ذلك البيت الحقيق ، وانسكبت على جسدين هامدين ..

شعراء المهجر

لو تخيل الخليل أن الأوزان التي نظم عقودها وأحكم أوصالها ستصير مقياساً لفضلات القرائح ، وخبوطاً تعلق عليها أصداف الأفكار ، لنثر تلك العقود وفصم عرى تلك الأوصال .

ولو تنبأ المتنبي وافترض الفارض أن ما كتبناه سيصبح مورداً لأفكار عميقة ، ومقوداً لرؤوس مشاعير يومنا ، لهماقنا المحابر في محاجر النسيان ، وحطما الأقلام بأيدي الإهمال .

ولو درت أرواح هو ميروس وفرجيل وأعمى المعرة وملتون أن الشعر المتجسم من النفس المشابهة الله ، سيحط رحاله في منازل الأغنياء ، لبعثت تلك الأرواح عن أرضنا واختفت وراء السيارات .

ما أنا من المتعنتين ، لكن يعز علي أن أرى لغة الأرواح تتناقلها السنة الأغنياء ، وكوثر الآلهة يسيل على أقلام المدعين ، ولست منفرداً في وهدة الاستياء بل رأيتني واحداً من كثيرين نظروا الضفدع ينتفخ تمثلاً بالجاموس .

الشعرياقوم روح مقدسة متجسمة من ابتسامة تحيي القلب أو تنهده تسرق من العين مدامعها . أشباح مسكنها النفس وغداؤها القلب ومشربها العواطف ، وإن جاء الشعر على غير هذه الصور فهو كمسيح كذاب نبذه أوقى .

فيا إلهة الشعر — يا إيدانو — اغتفري ذنوب الألى يقتربون منك بثرثرة
كلامهم ، ولا يعبدونك بشرف أنفسهم وتخييلات أفكارهم .
ويا أرواح الشعراء الناظرة إلينا من أعالي عالم الخلود ، ليس لنا عذر
لتقدمنا من مذابح زبتموها بلآلىء أفكاركم وجواهر أنفسكم ، سوى أن
عصرنا هذا قد كثرت فيه قلقة الحديد وضجيج المعامل ، فجاء شعرنا
ثقيلاً ضخماً كالقطارات ، ومزعجاً كصفير البخار .
وأنتم أيها الشعراء الحقيقيون ساحوننا ، فنحن من العالم الجديد نركض
وراء الماديات ، فالشعر عندنا صار مادة تتناقلها الأيدي ولا تدرى بها
النفوس .

تحت الشمس

« رأيت كل الأعمال التي عملت تحت
الشمس ، فإذا الكل باطل وقبض الريح »
(الجامعة)

ياروح سليمان السابحة في فضاء عالم الأرواح ، يامن خلعت ثوب
المادة الذي نحن نرتديه الآن ، لقد تركت وراءك هذا الكلام المنبثق من
الضعف والقنوط ، فولد ضعفاً وقنوطاً في سرى الأجسام .
أنت تعلمين الآن أن في هذه الحياة معنى لا يخفيه الموت ، ولكن أنى
للبشر تلك المعرفة التي لا تدرك إلا بعد انعتاق النفس من ربة التراب ؟ .
أنت تعلمين الآن أن الحياة ليست كقبض الريح ، وأن ليس تحت
الشمس شيء باطل ، بل كل شيء كان وسيبقى سائراً نحو الحقيقة ،
ولكن نحن المساكين قد تشبثنا بأقوالك وتدبرناها ، وما برحنا نظنها
حكمة باهرة وهي — أنت تعلمين — ظلمة تضيع العاقلة وتخفى
الأمل .

أنت تعلمين الآن أن للحماقة والشر والظلم أسباباً جميلة ، ونحن لا
نرى جمالاً إلا بظواهر الحكمة ونتاج الفضيلة وثمار العدل .
أنت تعلمين أن الحزن والفقر يطهران القلب البشري ، وعاقلتنا
القاصرة لا ترى شيئاً حرياً بالوجود إلا اليسر والفرج .
أنت تعلمين الآن أن النفس سائرة نحو التور قهراً من عقبات العمر ، ونحن

ما برحنا نردد كلامك الذى يدل على أن الإنسان ليس إلا العوبة فى يد
القوة غير المعروفة .
أنت ندمت على بث روحاً يضعف محبة الحياة الحاضرة ، ويميت
الشغف بالحياة الآتية ، ونحن لم نزل مصرين على حفظ أقوالك .
ياروح سليمان الساكنة فى عالم الخلود ، أوحى إلى محبى الحكمة ألا
يسلكوا سبل القنوط والجحود ، فقد يكون ذلك كفارة عن خطأ غير
مقصود .

نظرة إلى الآتى

من وراء جدران الحاضر سمعت تسايح الإنسانية ؟ سمعت أصوات الأجراس تهز دقائق الأثير معلنة بدء الصلاة في معبد الجمال .. أجراس سبكتها القوة من معدن الشواعر ورفعتها فوق هيكلها المقدس .. القلب البشرى .

من وراء المستقبل رأيت الجموع ساجدة على صدر الطبيعة متجهة نحو المشرق ، منتظرة فيض نور الصباح .. صباح الحقيقة .
رأيت المدينة قد اندثرت ولم يبق من آثارها غير طلل بال ، تخبر الرجال باندحار الظلمة أمام النور .

رأيت الشيوخ جالسين بظل أشجار الحور والصفصاف ، وقد جلس الصبيان حولهم يسمعون أخبار اليوم .
رأيت الفتيان يوقعون على القيثارة وينفخون في النساى ، والصبايا مسدولات الشعر يرقصن حولهم تحت أغصان الياسمين والفل .

رأيت الكهول يحمصون الزرع ، والنساء يحملن الأعمار ويترنمن بأناشيد أوحتها الغبطة والمسرة .

رأيت المرأة مستعيضة عن الملابس المشوهة بإكليل من الزنبق ،
ومنطقة من أوراق الأشجار الغضة .

رأيت الألفة مستحكمة بين الإنسان والمخلوقات ، فجماعات الطير
والفراش تقترب منه آمنة ، وسرب الغزلان تتثنى نحو الغدير واثقة .
نظرت فلم أر فقيراً ولا ما يزيد عن الكفاف ، بل الفيت الإخاء
والمساواة ، ولم أر طبيياً إذ كل غذا طيب ذاته بحكم المعرفة والاختبار ،
ولم أر كاهناً لأن الضمير أصبح الكاهن الأعظم ، ولم أر محامياً لأن
الطبيعة قامت بينهم مقام محكمة تسجل معاهدات الألفة والوثام .

رأيت الإنسان قد علم أنه حجر زاوية المخلوقات ، فترفع عن
الصغائر ، وتعالى عن الدنيا ، وكشف عن بصيرة النفس مناديل
الالتباس ، فأصبحت تقرأ ما تكتبه الغيوم على وجه السماء ، وما ينمقه
النسيم على صفحات الماء ، وتفقه كنه أنفاس الأزهار ، وتعرف معنى
أغاني الشحارير والبلابل .

من وراء جدران الحاضر .. على مسرح الأجيال الآتية رأيت الجمال
عروساً والنفس عروسة ، والحياة كلها ليلة القدر .

ملكة الجمال

بلغت خرائب تدمر وقد أنهكنى المسير ، فاستقبلت على أعشاب
نبتت بين أعمدة سلها الدهر وأناخها إلى الحضيض فبانت كأنها أشلاء
حرب هائلة . وصرت أتأمل بعظامم أجلها وهي مهدومة منقوضة عن
صغائر قائمة عامرة .

ولما جاء الليل وتشاركت المخلوقات المتنابهة بارتداء ثوب السكينة ،
شعرت بأن الأثير المحيط بي سيالا يضارع البخور عطراً ويعادل الخمر
فعلا ، فصرت أجرعه محكوما وأحس بأيد خفيفة تتساهم عاقلتي
وتثقف جسمي وتحل نفسي من سلاسلها ، ثم مادت الأرض واهتز
الفضاء فوثبت مدفوعاً بقوة سحرية ، فوجدتني في رياض لم يتخيلها
بشر قط ، مصحوبا بجوق من العذارى لم يرتدين بغير الجمال ، يمشين
حولى ولا تلمس أرجلهن الأعشاب ، وينشدن تسيحة منسوجة من
أحلام الحب ، ويضربن على قيثارات من العاج ذات أوتار ذهبية . لما
وصلت إلى منفرج قام في وسطه عرش مرصع بالجواهر بين مسارح
تنسكب منها أنوار بلون قوس القزح ، وقفت العذارى على اليمين واليسار
ورفعن أصواتهن عن ذى قبل ، ونظرن إلى جهة تنبعث منها رائحة المر
واللبان ، فإذا بمليكة ظهرت من بين الأغصان الزاهرة ومشت ببطء نحو
العرش واستوت عليه ، فهبط إذ ذاك شرب حمام كالثلج بياضاً واستقر

حول أقدامها بشكل هلال .

صار هذا والعدارى يغنين مجد المليكة سوراً ، والبخور يتصاعد لتكريمها أعمدة ، وأنا واقف أرى ما لم تره عين إنسان ، وأسمع ما لم تعه أذن بشرى .

حينئذ أشارت المليكة بيدها فسكنت كل حركة ، ثم قالت وصوتها يهز نفسى مثلما تفعل يد الموقع بأوتار عود ، ويؤثر بمجموع ذلك المحيط السحري كأن للأشياء آذانا وأفئدة : « دعوتك أيها الإنسى وأنا ربة مسارح الخيال ، وحبوتك المثول أمامى وأنا مليكة غابة الأحلام ، فاسمع وصاياى وناد بها أمام البشر . قل إن مدينة الخيال عرس يخفر بابه وارد جبار فلن يدخله إلا من لبس ثياب العرس . قل هى جنة يحرسها أملاك المحبة فلا ينظرها سوى من كان على جبهته وسم الحب . هى حقل تصورات أنهاره طبيعية كالخمر ، وأطياره تسبح كالملائكة ، وأزاهره فائحة العبير فلا يدوسه غير ابن الأحلام . خبر الإنس بآنى وهبتهم كأساً يفعمه السرور فهرقوه بجهلهم ، فجاء ملاك الظلمة فملأه من عصير الحزن فجرعوه صرفاً وسكروا . قل لمن يحسن الضرب على قيثارة الحياة غير الذين لمست أناملهم وشاحى ، ونظرت أعينهم عرسى ، فأشعياً نظم الحكمة عقوداً بأسلاك محبتى ، ويوحنا روى رؤياه بلسانى ، ولم يسلك دانتى مراتع الأرواح بغير أدلتى ، فأنا مجاز يعانق الحقيقة ، وحقيقة تبين وحدانية النفس ، وشاهد يزكى أعمال الآلهة . قل إن للفكرة وطنا ، أسمى من عالم المرثيات لا تكدر سماءه غيوم السرور ، وأن للتخييلات رسوماً كائنة فى سماء الآلهة تنعكس على مرآة النفس ليعم رجاؤها بما

سيكون بعد انعتاقها من الحياة الدنيا .
وجذبتني مليكة الخيال نحوها بنظرة سحرية ، وقبلت شفتي الملتهبتين
وقالت : « قل ومن لا يصرف الأيام على مسرح الأحلام كان عبد
الأيام » .

عندئذ تصاعدت أصوات العذارى وارتفعت أعمدة البخور
وحجبت الرؤيا . ثم مادت الأرض واهتز الفضاء فوجدتني بين تلك
الخرائب المحزنة وقد ابتسم الفجر وبين لساني وشفتي هذه الكلمات :
« من لا يصرف الأيام على مسرح الأحلام كان عبد الأيام » .

يالائمي

دعني يالائمي ووحدي . أستحلفك بحب يضم نفسك بجمال
الرفيقة ، ويوثق قلبك بحنو الأم ، ويربط قوادك بعواطف الابن ، أن
تركني وحالي .

خلني وشأني وأحلامي واصبر إلى الغد ، فالغد يقضى على بما يشاء .
محضتني النصح والنصح طيف يسير بالنفس إلى مرتع الحيرة ،
ويقودها إلى حيث الحياة جامدة كالتراب .

لي قلب صغير أريد أن أخرجه من ظلمة صدري وأحمله على كتفي
متفحصاً أعماقه ، ومستحكياً أسراره ، فلا ترصده يالائمي بنبال
مذاهيك مسيئاً خوفه واختفائه ضمن قفص الضلوع ، قبل أن يسكب
دماء خفاياه ويقوم بفرض عقده الآلهة عندما ابتدعته من الجمال

والحب .

هنا قد طلعت الشمس وغرد الهزار والبلبل ، وتصاعدت أرواح
الآس والمنثور ، وأنا أريد الانعتاق من لحف الكرى لأسير مع الحملان
البيضاء ، فلا تعتقني يالائمي ولا تخفني بأسد الغاب ، وصل الوادى لأن
نفسى لا تعرف الجزع ، ولا تنذر بالسوء قبل مجيئه .
دعنى يالائمي ولا تعظني ، لأن المصائب فتحت بصيرتى ، والدموع
جلت بصرى ، والحزن علمنى لغة القلوب .
اعتزل ذكر المحرمات ، فلى من ضميرى محكمة تقضى بالعدل على ،
وتقيني العقاب إن كنت ذا برارة ، وتحرمنى الثواب إن كنت من المجرمين .
ها قد سار موكب الحب فمشى الجمال رافعاً أعلامه ، وسارت
الشبيبة نافخة أبواق الفرحة ، فلا تردعنى يالائمي ، بل دعنى أسير ،
فالطريق مفروشة بالورد والرياحين ، والهواء قد عطرتة مجامر المسك .
اعتقنى من حكاية المال وقصص المجد ، لأن نفسى غنية باكتفائها
ومشغولة بمجد الآلهة .
اعتقنى من مآتى السياسة وأخبار السلطة ، لأن الأرض كلها وطنى ،
وجميع البشر مواطنى .

مناجاة

اين أنت الآن يا جميلتي ؟ أفي تلك اللجنة الصغيرة تسقين الأزهار التي تحبك محبة الأطفال ثدى أمها . أم في خدرك حيث أقمت للطهر مذبحاً وقفت عليه روحى وحشاشتى ، أم بين كتبك تستريدين من حكمة البشر وأنت غنية بحكمة الآلهة ؟ .

أين أنت يارفيقة نفسى ؟ أفي الهيكل تصلين من أجلى ، أم في الحقل تناجين الطبيعة مرتع إعجابك وأحلامك ، أم بين أكواخ المساكين تعزين منكسرات القلوب بحلاوة نفسك ، وتملأين أياديهم بإحسانك ؟ .
أنت فى كل مكان لأنك من روح الله . وفى كل زمان لأنك أقوى من الدهر . هل تذكرين ليالى جمعتنا وشعاع نفسك يحيط بنا كالهالة ، وملائكة الحب تطوف حولنا مترنمة بأعمال الروح ، وتذكرين أيام جلسنا بظل الأغصان وهى مخيمة علينا كأنها تريد أن تحجبنا عن البشر مثلما تحجب الضلوع أسرار القلب المقدسة ، هل تذكرين ممرات ومنحدرات مشينا عليها وأصابعك محبوكة بأصابعى احتباك ضفائرك ، وقد أسندنا رأسينا برأسينا كأننا نحتفى منا بنا .. ؟ وهل تذكرين ساعة جئتك مودعاً فعانقتنى ثم قبلتنى قبله مريمية ، علمت منها بأن الشفاه إذا انضمت جاءت بأسرار علوية لا يعرفها اللسان .. قبله كانت توطئة لتنهيدة مزدوجة حاكت نفساً نفخه « الله » فى الطين فصار إنساناً . تلك

تهيئة سبقتنا إلى عالم الأرواح معلنة مجد نفسينا ، وهناك ستبقى حتى
نجتمع بها إلى الأبد . ثم قبلتني وقبلتني وقبلتني ، وقلت والدمع يساعدك
« إن للأجسام أعراضاً مجهولة فهي تفرق لشؤون عالمية وتتباعد . لما آرب
دنيوية ، أما الأرواح فتظل في قبضة الحب مستأمنة حتى يجيء الموت
ويسير بها إلى الله . اذهب يا حبيبي ، لقد انتدبتك الحياة فأطعها ، فهي
حسنة تسقى مطيعها من كوثر اللذة كؤوساً مفعمة ، أما أنا فلي من
حبك عريس ملازم ، ومن ذكراك عرس طويل مبارك » .

أين أنت الآن يارفيقتي ؟ هل أنت ساهرة في سكينه الليل نسيماً
أحمله دقات قلبي وخفايا جوارحي كلما هب نوحك ؟ وأنت ناظرة رسم
فتاك ؟ ذاك رسم لم يعد ينطبق على مرسومه ، فالحزن قد ألقى خياله على
جبهة كانت بالأمس متفرحة بقربك ، والنواح أذبل أجفاننا كانت
مكحولة بجمالك ، والوجد جفف ثغراً كان مرطباً بقبلااتك .

أين أنت يا حبيبتى ؟ هل أنت سامعة من وراء البحار ندائى
وانتحالى ، وناظرة ضعفى ومذلتى ، وعالمة بصبرى وتجلدى ؟ أوليست
فى الهواء أرواح تنقل أنفاس محتضراً متوجع ؟ أو لم تكن بين النفوس أسلاك
خفية تحمل شكوى محب دنف ؟ .

أين أنت يا حياتى ولقد احتضنتنى الظلمة وغلبنى الأسى . ابتمسى
فى الهواء فانتعش : تنفسى فى الأثير فأحى .

أين أنت يا حبيبتى ، أين أنت ؟ .

آه ما أعظم الحب ، وما أصغرني !

المجرم

على قارعة الطريق قعد شاب مستعطياً .. فتى قوى الجسم أضعفه
الجوع فجلس في منتصف الشارع ماداً يده نحو العابرين متسولا مستغيثاً
بالمحسنين ، مردداً آيات انكساره شاكياً آلام جوعه .
خيم الليل وقد بيست شفتاه وكلّ لسانه ولم تنزل يده فارغة مثل
جوفه ، فقام إذ ذاك وذهب إلى خارج المدينة وجلس بين الأشجار وبكى
بكاء مرأ ، ثم رفع نحو السماء عينيه يغشاهما الدمع وقال والجوع يلقنه :
« يا رب قد ذهبت إلى الموسر أطلب عملاً فطردت لثلاثة أثوابى .
وطرقت باب المدرسة فمنعت لفراغ يدي ، ورمت الاستخدام ولو
بكفاف يومى فأبعدت لسوء طالعى ، وأخيراً سعيت متسولا فرآنى
عبادك يا رب وقالوا هذا قوى نشيط والإحسان لا يجوز على ابن التوانى
والكسل . قد ولدتنى أمى بإرادتك يا رب وأنا كائن الآن بكيانك ،
فلماذا يمنع الناس الخبز عنى وأنا طالب باسمك ؟ . فى تلك الدقيقة تغيرت
سحنة الرجل اليأس ، فانتصب وقد لمعت عيناه كالشهب ، ثم اقتضب
من الأغصان اليابسة نبوتاً ضخماً وأشار به نحو المدينة وصرخ قائلاً :
« طلبت الحياة بعرق الجبين فلم أجدها ، فسوف أحصل عليها بقوة
ساعدى . وسألت الخبز باسم المحبة فلم يسمعنى الإنسان ، فسأطلبه
باسم الشر وأستزيد منه » .

مرت الأعوام والشباب يقطع الأعناق من أجل الحصول على النقود ،
ويهدم هياكل الأرواح إن تصدت لمطامعه ، فنمت ثروته وعم بطشه
وصار محبوباً من لصوص القوم ومخيفاً لعقلائهم ، ثم انتدبه الأمير وكيلا
عنه في تلك المدينة شأن الأمراء بانتقاء ممثليهم .
كذا يتدع الإنسان من المسكين سفاحا باستمساكه ، ومن ابن
السلام قاتلا بقساوته .

الرفيقة

أول نظرة ..

هي الدقيقة الفاصلة بين نشوة الحياة ويقظتها . هي الشعلة الأولى التي
تنير خلايا النفس . هي أول رنة سحرية على أول وتر من قيثارة القلب
البشرى . هي آونة قصيرة تعيد على مسمع النفس أخبار الأيام الغابرة ،
وتكشف لبصرها أعمال الليالي ، وتبين لبصيرتها أعمال الوجدان في هذا
العالم ، وتتيح سر الخلود في العالم الآتى . هي نواة تطرحها عشروت (١)
من العلاء ، فتلقبها العيون في حقل القلب فتستنبتها العواطف ثم تستثمرها
النفس . أول نظرة من الرفيقة تشابه الروح الذى يرف على وجه القمر
ومنه انبثقت السماء والأرض . أول نظرة من شريكة الحياة تحاكي قول
الله « كن »

عشروت إلهة الحب والجمال عند قدماء سكان فينيقيا ولبنان ، وهي التى يدعوها
اليونان أفروديت والرومان فينوس

أول قبلة ..

هي الرشفة الأولى من كأس ملأتها الآلهة من كوثر الحب ، هي الحدبين شك يراود القلب فيحزنه ويقين يفهمه فيغبطه . هي مطلع قصيدة الحياة الروحية والفصل الأول من رواية الإنسان المعنوي . هي عروة توثق غرابة الماضي ببهاء الآتي وتجمع بين سكينه الشواعر وأغانيتها . هي كلمة تقولها الشفاه الأربع معلنة صيرورة القلب عرشاً ، والحب مليكا ، والوفاء تاجاً . هي ملامسة لطيفة تحاكي مرور أنامل النسيم على ثغر زهرة الورد حاملة معها تنهدا مستطيلا لذيذاً وأنة خفية عذبة ، هي بدء اهتزازات سحرية تفصل المحبين عن عالم المقاييس والكمية إلى عالم الوحي والأحلام . هي ضم زهرة الشقيق إلى زهرة الجلنار ومزج أنفاسهما لتوليد نفس ثالث ، وإذا كانت النظرة الأولى تشابه نواة ألقها إلهة الحب في حقل القلب البشري ، فالقبلة الأولى تحاكي أول زهرة في أطراف أول غصن في شجرة الحياة .

القران

ههنا يتدىء الحب أن ينظم نثر الحياة وينشئ من معاني العمر سوراً ترتلها الأيام وتنغمها الليالي . ههنا يزيح الشوق ستائر الأشكال عن معميات السنين الماضية ، ويؤلف من نتف اللذات سعادة لا يفوقها غير سعادة النفس عندما تعانق ربها . القران هو اتحاد ألوهيتين على إيجاد ألوهية ثالثة على الأرض . هو تكاتف اثنين قوين بجبهما لمقاومة دهر ضعيف بيغضه . هو تمازج خمرة صفراء برحيق قرمزي لتوليد شراب برتقالي^(١)

(١) اللون البرتقالي يتولد كيميائياً من الأحمر والأصفر .

يحاكى لون الشفق عند مجئ الفجر . هو تنافر روحين من التنافر ، والاتحاد
نفسين مع الاتحاد . هو حلقة ذهبية من سلسلة ، أولها نظرة وآخرها
اللانهاية . هو انهمال غيث نقى من سماء طاهرة نحو طبيعة مقدسة
لاستخراج قوى حقول مباركة . فإذا كانت النظرة الأولى من وجه
المحبوبة مثل نواة ألقته المحبة في حقل القلب ، والقبلة الأولى من شفيتها
تشابه أول زهرة في غصن الحياة ، فالقران بها يحاكي أول ثمرة من أول
زهرة من أول نواة .

بيت السعادة

تعب قلبي في داخلي فودعني وذهب إلى بيت السعادة ، ولما بلغ ذلك الحرم الذي قدسته النفس وقف حائراً لأنه لم ير هناك ما طالما توهمه . لم ير قوة ولا مالا ، لا ولا سلطة . لم ير غير فتى الجمال ورفيقته ابنة المحبة وطفلتها الحكمة .

وخاطب قلبي ابنة المحبة قائلاً : « أين القناعة أيتها المحبة ، فقد سمعت أنها تشاطركم سكنى هذا المكان ؟ » قالت : « ذهبت القناعة تركز في المدينة حيث المطامع ، فنحن لانحتاجها . السعادة لا تبتغي قناعة ، إنما السعادة شوق يعانقه الوصال ، والقناعة سلو يساوره النسيان . النفس الخالدة لاتقنع لأنها تروم الكمال ، والكمال هو اللانهاية » .

وخاطب قلبي فتى الجمال قائلاً : « أرني سر المرأة أيها الجمال ، وأرني لأنك معرفة » . فقال « هي أنت أيها القلب البشري ، وكيفما كنت وكانت . هي أنا وأينما حللت حلت . هي كالدين إذا لم يحرفه الجاهلون ، وكالبدر إذا لم تحجبه الغيوم ، وكالنسيم إذا لم تتعلق بأذياله أنفاس الفساد » .

واقترب قلبي من الحكمة ابنة المحبة والجمال وقال : « أعطني حكمة أحملها إلى البشر » فأجابت : « قل هي السعادة تبتدىء في قدس أقداس النفس ولا تأتي من الخارج » .

مدينة الماضي

وقفت بي الحياة على سفح جبل الشباب وأومات إلى الورا ، فنظرت
فإذا بمدينة غريبة الشكل والرسوم متربعة في صدر سهول تتموج فيها
الخيالات والأبجزة المتلونة متوشحة بقناع ضباب لطيف يكاد يحجبها .
قلت : « ما هذه أيتها الحياة ؟ » قالت : « هي مدينة الماضي
فتأمل ؟ » فتأملت ورأيت . معاهد أعمال جالسة كالجبابرة تحت أجنحة
النوم . مساجد أقوال تحوم حولها صارخة صراخ القنوط ، مترنمة ترنيمة
الأمّل . هياكل أديان أقامها اليقين ثم هدمها الشك . مآذن أفكار مرتفعة
نحو العلو كأنها أيدي المتسولين . شوارع أميال منبسطة انبساط النهر بين
الربى . مخازن أسرار حرسها الكتمان فسرقته لصوص الاستعلام ، أبراج
أقدام بنتها الشجاعة فثلتها المخاوف . صروح أحلام زينتها الليالي وخربتها
اليقظة . أكواخ صغار سكنها الضعف ، وجوامع وحدة قام فيها نكران
الذات . نوادي معارف أنارها العقل فأظلمها الجهل . حانات محبة سكر
بها العشاق فاستهزأ بهم الخلو . مراسع أعمار مثلت عليها الحياة روايتها ثم
جاء الموت وختم مأساته .

تلك مدينة الماضي فهي بعيدة قريبة .. منظورة محجوبة .

ومشت أمامي الحياة وقالت « اتبعني فقد طال بنا الوقوف » قلت :

« إلى اين أيتها الحياة » قالت : « إلى مدينة المستقبل » . قلت : « رفقا

فقد أنهكنى المسير وكلمت أقدامى الصخور وهدت قواى العقبات «
قالت : « سر ! الوقوف جبانة ، والنظر إلى مدينة الماضى جهالة » .

اللقاء

عندما أكمل الليل تنميق ثوب السماء بجواهر النجوم ، تصاعدت من
وادي النيل حورية محفوفة بأجنحة غير منظورة وجلست على عرش من
الغيوم مرتفع فوق بحر الروم مفضض من أشعة القمر . فمر من أمامها
جوق أرواح سابحة فى الفضاء صارخة : « قدوس قدوس قدوس ! ابنة
مصر مجدها ملء كل الأرض » .

وتصاعد من أعالي قم ميزاب المحيط بغابة الأرز طيف فتى مكتنفاً
بأيادى الساروفيم ، وجلس على العرش بقرب الحورية فعادت الأرواح
ومرت من أمامها هاتفة : « قدوس قدوس قدوس افتى لبنان مجده ملء
كل الدهور » . .

لما أخذ المحب يد حبيبته ونظر إلى عينيها ، حملت الأرواح والأمواج
هذه المناجاة إلى جميع الأقطار :

- « ما أكمل بهاءك يا ابنة إيزيس ، وما أعظم حبى لك » .
- « ما أجملك بين الفتيان يا ابن عشروت ، وما أكثر شوقى إليك » .
- « محبتى نظير أهرامك ، فلا تهدمها الأجيال يا حبيبتى » .
- « محبتى تحاكى أرزك ، فلن تغلبها العناصر يا حبيبتى » .
- « حكماء الأمم يأتون من المشرق والمغرب ليستحكموا حكمتك ،

ويستفسروا رموزك يا حبيبتى .
« عظماء الأرض يجيئون من الممالك ليسكروا من رحيق جمالك
وسحر معانيك يا حبيبتى .
« إن راحتك منبت خيرات غزيرة ، تملأ الأهراء يا حبيبتى .
« إن ذراعيك منبع المياه العذبة ، وأنفاسك نسيمات منعشة
يا حبيبتى .
« قصور النيل وهياكله تذيع مجدك ، وأبو الهول يحدث بعظمتك
يا حبيبتى .
« الأرز على صدرك وسام شرف أثيل ، والأبراج حولك تروى
بطشك واقتدارك يا حبيبتى .
« آه ما أميلح محبتك ، وما أحيل الأمل المناط بارتقائك يا حبيبتى .
« آه ما أكرمك خليلاً ، وأوفاك حليلاً ، وما أجمل هداياك وأنفس
عطاياك . بعثت إلى بالفتيان فكانوا يقظة بعد نوم عميق . أتخفتنى
بالفارس فغلب ضعف قومي وحبوتنى (بالأديب) فأنهضهم
وبالنجيب فأثملهم .. » .
« بعثت إليك بالبندوز فصيرتها أزهاراً ، وبالأنصاب فجعلتها
أشجاراً . فأنت حقل بكر يجيى الورد والسوسن ، ويرفع السرو
والأرز .. » .
أرى بعينيك حزناً يا حبيبتى — أتخزنى وأنت بقربى ؟ » .
« لى ابناء رحلوا إلى ما وراء البحار ، وخلفونى حليف بكاء وأليف
شوق » .

« ليت لي ما يشابه حزنك ، وتنصرف عني مخاوفى يا حبيبتى .
« أتخافين يا ابنة النيل وأنت عزيزة الأم ؟ » .
« أخاف من طاغية تقترب منى بحلاوة روعها ، وتمتلك أعنتى بقوة
ساعديها » .
« إن حياة الأم يا حبيبتى مثل حياة الأفراد . حياة يؤاخيها الأمل ،
ويقارنها الخوف ، وتحف بها الأمانى ، ويرمقها القنوط » .
وتعانق الحبيبان وشربا من كؤوس القبل رحيقاً عطراً ، فمرت
أجواق الأرواح منشدة : قدوس قدوس قدوس ! المحبة مجدها ملء
السماء والأرض .

مخبات الصدور

في صرح فخيم واقف تحت جناح الليل وقوف الحياة بين ستائر الموت ، جلست صبية بقرب منضدة عاجية تسند رأسها الجميل بيدها ، مثلما تتكىء زنبقة ذابلة على أوراقها ، وتنظر إلى ما حولها نظرات سجين يائس يريد أن يخرق بعينه جدران حبسه ليرى الحياة السائرة في موكب الحرية .

مرت الساعات مرور أشباح الظلمة ، وتلك الصبية مستأنسة بدموعها . مستأنمة بانفرادها ولوعتها . حتى إذا ما اشتدت على قلبها وطأة عواطفها وامتلكت شواعرها خزائن أسرارها ، تناولت قلماً وأخذت تمزج على صفحات الورق قطرات الحبر بدموعها ، وتجمع بين الكلام ومكونات نفسها . وهاك ما كتبت :

أيتها الأخت المحبوبة .

عندما يضيق القلب بأسراره وتتقرح الأجفان من حرارة دموعها ، وتكاد الضلوع تتمزق من نمو مخبات الصدور ، لا يجد المرء غير الكلام والشكوى . فالحزين يا صديقتي يستعذب الشكوى يجد المحب تعزية بالتشبيب ، والمظلوم لذة بالاسترحام .. فأنا أكتب إليك الآن لأنني أصبحت كشاعر يرى جمال الأشياء فينظم تأثيرات ذلك الجمال محكوما بقوة ألوهيته ، أو كطفل الفقير الجائع يستغيث مدفوعا بمرارة

جوعه غير راحم فاقه أمه وانكسارها .
اسمعى قصتى الموجهة يا أختى وابكى من أجلى ، لأن البكاء
كالصلاة ، ودموع الشفقة كالإحسان لا تذهب سدى ، لأنها متصاعدة
من أعماق نفس حية شاعرة .. شاء والذى وجمع بالقران بينى وبين رجل
شريف غنى شأن كل والد غنى شريف يروم تعزيز المال بالمال مخافة
الفقر ، وضم الشرف إلى الشرف هربا من ذل الأيام ، فكنت مع
عواطفى وأحلامى ضحية على مذبح ذهب أحتقره ، وشرف موروث
أكرهه ، وفريسة ترتعد بين أظافر المادة التى إذا لم تكن خادمة مطيعة
للروح كانت أقسى من الموت وأمر من الهاوية ، أنا أعتبر بعلى ، لأنه كريم
الخلق شريف القلب ، يجهد النفس فى سبيل سعادتى ويبدل المال
لرضائى ، لكننى وجدت تأثير هذه الأشياء كلها لا يساوى دقيقة محبة
حقيقية مقدسة . تلك المحبة التى تستصغر كل شئ وتبقى عظيمة . لا
تسخرى بى يارفيقتى فأنا الآن أعلم الناس بحاجات قلب المرأة — هذا
القلب الخفوق — هذا الطائر السابح فى فضاء المحبة — هذا الإناء الطافح
من خمرة الدهور المعدة لمراشف الأرواح .. هذا الكتاب المطبوعة فيه
فصول السعادة والشقاء ، واللذة والألم ، والمسرة والأحزان ، فلا يقرأه
إلا الرفيق الحقيقى ، نصف المرأة المخلوق لها منذ الأزل وإلى الأبد .. نعم
صرت أدرى النساء بأغراض النفس وأميال القلب عندما وجدت أن
خيول بعلى المطهمة ومركباته البديعة وخزائنه الطافحة وشرفه الرفيع
لا تساوى نظرة واحدة من عيون ذلك الفتى الفقير الذى جاء هذه الحياة
من أجلى وجئت من أجله ، ذلك الصابر على مضض البلى وذل

التفريق ، ذلك المظلوم عفواً بإرادة والدي ، والمسجون بلا إثم في ظلمة العمر .. إياك يا صديقتي محاولة تعزيتي ، لأن لي في مصائبى معزيا هو إدراكى قوة حبى ، ومعرفتى شرف شوفى وحنينى ، فأنا أنظر الآن من وراء الدموع فأرى المنية تقترب منى يوما فيوما لتقودنى إلى حيث أنتظر رفيق نفسى وألتقى به وأعانقه عناقا طويلا مقدساً . ولا تلومينى فأنا قائمة بواجبات الزوجة الأمينة ، خاضعة لأحكام الشرائع البشرية بتجلد وهدوء ، أكرم بعلى بعاقلتى ، وأعتبره بقلبى ، وأجله بنفسى ، ولا يمكننى أن أهبه كليتى لأن الله أعطاها إلى حبيبى قبل معرفتى حبيبى . شاءت السماء لحكمة خفية أن أصرف العمر مع رجل خلقت لغيره ، فأنا أنفق هذا العمر حسب مشيئة السماء بسكينة ، ولكن إذا ما انفتحت أبواب الأبدية التحمت بنصف نفسى الجميل ونظرت إلى الماضى — وذلك الماضى هو هذا الآن .. نظرة الربيع إلى الشتاء ، وتأملت فى حياتى هذه مثلما يتأمل فى العقبات من بلغ قمة الجبل .

هنا . وقتت تلك الصبية عن الكتابة . وحببت وجهها بيديها . وبكت بكاء مرأ كأن نفسها الكبيرة أبت أن تسلم أقدم أسرارها إلى الورق . فأعطتها إلى دموع سخينة تجف بسرعة وتمتزع بأثير الطيف وموطن أنفاس المحبين وأرواح الأزهار . وبعد هنيهة أخذت القلم وكتبت .. « هل تذكرين يا صديقتى ذلك الفتى ؟ هل تذكرين تلك الأشعة المنبعثة من عينيه ، وتلك الأحزان المرسومة على جبينه ؟ هل تذكرين ابتسامه المشابه دموع الشكى ؟ هل تذكرين صوته المحاكى صدى الوادى البعيد ؟ هل تذكرينه إذ كان يتأمل فى الأشياء بنظرات

طويلة هادئة ، ثم يتكلم عنها بغرابة . ثم يخنى رأسه ويتهد كأنه يخاف أن
يشف حديثه عن خفايا قلبه الكبير ، وهل تذكرين أحلامه وعقائده !
هل تذكرين كل هذا الأشياء في فتى يحسبه البشر من البشر ، ويحتقره
والدى لأنه أسمى من المطامع الترايبية وأشرف من أن يرث الشرف عن
الجدود ؟ إى يا أختى أنت تعلمين أننى شهيدة صغائر هذا العالم وضحية
الغباوه وترحمين أختاً ساهرة في سكينه الليل الخفيف لتكشف لك ستائر
صدرها عن أسرار قلبها . أنت ترحمين لأن الحب قد زار قلبك » .
جاء الصباح فقامت تلك الصبية واستسلمت للكرى ، عليها تجدد فيه
أحلاماً ألطف من أحلام اليقظة ..

القوة العمياء

جاء الربيع وتكلمت الطبيعة بألسنة السواقي ففرحت القلب ،
وابتسنت بشفاه الأزهار فأسعدت النفس . ثم غضبت ودكت المدينة
الجميلة فأنست الإنسان عذوبة كليماتها ورقة ابتساماتها . قوة عمياء
مخيفة نقضت بساعة ما أقامته الأجيال . موت ظلوم قبض بأظافره
المحدودة على الأعناق فسحقها بقساوة . نار آكلة التهمت الأرزاق
والأعمار . ليل قاتم أخفى جمال الحياة تحت لحف الرماد . عناصر هائلة
هبت من مرابضها وقاتلت الإنسان الضعيف وخربت مساكنه وذرت
بسرعة ما جمعه بالتأني . زلزال عنيف حبلت به الأرض فتمخضت
متوجعة ولم تلد غير الخراب والشقاء .

جرى كل ذلك والنفس الحزينه ناظرة من بعيد تتأمل وتتأمل . تتأمل
بمقدرة الإنسان المحدودة تجاه القوى غير العاقلة وتتأمل مع المصابين الهارين
من النار والدمار . تتأمل بأعداء ابن آدم الكامنة له تحت أطباق الثرى
وبين دقائق الأثير ، وتتأمل مع الولادات النائحات والأطفال الجائعين .
تتأمل بقساوة المادة واستصغارها الحياة العزيزة ، وتتأمل مع الذين رقدوا
بالأمس مستأمنين في منازلهم فأصبحوا اليوم واقفين عن بعد يرثون المدينة
الجميلة بغصات مؤلمة وعبرات مرة . تتأمل بكيفية انقلاب الأمل يأساً ،
والفرح حزناً ، والراحة عذاباً ، وتتأمل مع قلوب ترتعد بين مخالب اليأس

والحزن والعذاب .

كذا وقفت النفس بين التأمل والتأمل تنقاد تارة إلى الشك بعدالة النواميس الرابطة القوات بعضها دون الآخر ، وتعود طوراً فتهمس في آذان السكينة قائلة : إن وراء الكائنات حكمة سرمدية تبتدع من كوارث ونوازل نراها محاسن نتائج لانراها . فالنار والزلازل والعواصف من جسم الأرض بمكان البغض والحقد والشر في القلب البشرى تثور وتضج ثم تخمد ، ومن ثورتها وضجيجها وخمودها تبتدع الآلهة معرفة جميلة يتاعها الإنسان بدمعه ودمه وأرزاقه .

أوقفتنى الذكرى ونكبة هذه الأمة تملأ الأسماع أنه وعويلا ، وصورت أمام عيني كل مامر على مسرح الأيام الغابرة من العبر والخطوب . فرأيت الإنسان في كل أدواره يقيم على صدر الأرض البروج والقصور والهياكل ، والأرض ترجعها إلى قلبها . رأيت الأشداء يشيدون المباني القوية ، والنحاتين يخلقون من الصخور صوراً وأشباحاً ، والرسامين يزينون الجدران والمداخل بالنقوش والنسيج . ثم رأيت هذه اليابسة تفغر فاها وتبتلع بخشونة ما ألفته الأيادي المتفننة والعقول الراجحة ، ماحية بقساوتها ظواهر الصور والأشباح ، مدمرة بسخطها خطوط الرسوم والنقوش ، دافنة بعنفها فخامة الدعائم والجدران ، ممثلة دور حسناء مستغنية عن الحللى التى يصيغها ابن آدم ، مستكفية بحلل المروج الخضراء المزركشة بذهب الرمال وجواهر الحصى .

على أننى وجدت بين هذه النكبات المخيفة والرزايا الهائلة ، ألوهية الإنسان واقفة كالجبار تسخر بحماقة الأرض وغضب العناصر ، ومثل

عمود نور منتصبه بين خرائب بابل ونيوى وتدمر وبمباى وسان
فرنسيسكو ، تترتل أنشودة الخلود قائلة : لتأخذ الأرض ماها فلا نهاية
لى .

منيتان

فى سكىنة الليل هبط الموت من لدن الله نحو المدينة النائمة ، واستقر
على أعلى معذنة فيها ، وخرق بعينه النيرتين جدران المساكن ، ورأى
الأرواح المحمولة على أجنحة الأحلام ، والأجساد المحكومة بمفاعيل
الكرى .

ولما توارى القمر وراء الشفق ، وتوشحت المدينة بنقاب الخيال ،
سار الموت بقدم هادئة بين المساكن حتى بلغ صرح القوى الغنى فدخل
ولم تصده الحواجز ، ووقف جنب سريره ثم لمس جبينه فاندعر من
غفلته ، ولما رأى خيال الموت أمامه صرخ بصوت تجسمت فيه عوامل
الحنق والخوف وقال : ابعده عنى أيها الحلم الخفيف . اذهب أيها الخيال
الشرير . كيف دخلت أيها السارق ، وماذا تروم أيها الخاطف ؟ اذهب
فأنا رب البيت ، اذهب وإلا ناديت العبيد والحراس فيمزقونك إربا .
حينئذ اقترب الموت وبصوت يحاكى الرعد قال : « أنا هو الموت
فانتبه واعتبر ! » فأجاب القوى الموسر : « ماذا تريد منى الآن وماذا
تطلب ؟ لماذا جئت وأنا لم أنه أعمالى بعد ! ماذا تطلب من الأقوياء
نظيرى ، اذهب إلى السقماء . اغرب عنى ولا ترنى أظافرك الجارحة

وشعرك المسدول كالأفاعى . رح فقد سئمت النظر إلى جناحك الهائلين
وجسدك البالى « وبعد سكينه مزعجة زاد » لا لا أيها الموت الرؤوف —
لا تحفل بما قلته ؛ فالخوف يوحى ما يجرمه القلب — خذ مكيا لا من ذهبى
أو قبضة من أرواح عبيدى واتركنى وشأنى ... لى ياموت مع الحياة
حساب لم أنهه ، ومع الناس مال لم أستوفه ، لى بين أمواج البحر مراكب
لم تصل إلى الساحل ، وفى قلب الأرض غلة لم تنبت . خذ ما شئت من
هذه الأشياء واتركنى . لى جوار كالصباح جمالا فاختر منهن ما تريد .
اسمع أيها الموت لى وحيد أحبه وهو عقدة آمالى ، خذه واتركنى . خذ ما
تشاء خذ كل شىء واتركنى » .

حينئذ وضع الموت يده على فم عبد الحياة الترابية ، وأخذ حقيقته
وأعطاها للهواء .

سار الموت بين أحياء الفقراء الضعفاء حتى بلغ بيتاً حقيراً فدخله
واقترب من سرير عليه فتى فى ربيع العمر ، وبعد أن تأمل فى وجهه
الهادئ لمس عينيه فاستيقظ . ولما رأى الموت واقفاً بجانبه جثا على ركبتيه
ورفع ذراعيه نحوه وقال بصوت أودعه كل ما فى نفسه من المحبة والشوق
« ها أنذا أيها الموت الجميل .. اقبل نفسى يا حقيقة أحلامى وموضوع
آمالى ! ضمنى يا حبيب نفسى ، فأنت رحوم لا تتركنى ههنا . أنت
رسول الآلهة . أنت يمين الحق فلا تتخل عنى . كم طلبتك ولم أجدك ،
وكم ناديتك ولم تسمع .. قد سمعتنى الآن فلا تقابل شغفى بالصدود ..
عانق نفسى يا حبيبى الموت » .

وضع الموت إذ ذاك أنامله اللطيفة على شفتى الفتى وأخذ حقيقته

ووضعها تحت جناحيه .

ولما خلق الموت في الجو نظر نحو هذا العالم ونفخ في الهواء هذه الكلمات : « ولن يرجع إلى الأبدية إلا من جاء من الأبدية » .

على ملعب الدهر

ودقيقة تتراوح بين تأثيرات الجمال وأحلام الحب هي أسمى وأثمن من جبل ملأه المجد الذي يمنحه الضعيف المسكين للقوى الطامع .
من تلك الدقيقة تنبثق ألوهية الإنسان ، وفي ذاك الجبل تنام نوماً عميقاً مكتنفة ببرايق أحلام مزعجة . في تلك الدقيقة تتحرر النفس من أعباء شرائع الإنسان المتباينة ، وفي ذاك الجبل تحبس وراء جدران الإهمال مثقلة بقيود الظلم . تلك الدقيقة كانت مهد نشيد سليمان وموعظة الجبل وتائية ابن الفارض ، وذاك الجبل كان القوة العمياء التي هدمت هياكل بعلبك ودكت مباني تدمر وسحقت بروج بابل .

ويوم صرفته النفس آسفة على موت حقوق الفقير ، متأوّهة على فقدان العدل هو أجل وأفضل من عمر يضيعه الإنسان مسروراً على مائدة الشهوات ، مستسلماً لقضاء الأنانية ، ذاك يوم يطهر القلب بناره ويفعمه بنوره ، وذا عمر يخيم عليه بجنحة القتم ويلحده طي طبقات التراب . ذاك يوم كان يوم العبر . ويوم الجلجلة ، ويوم الهجرة ، وذا عمر أنفقه نيرون في سوق المظالم ، ووقفه قارون على مذبح المطامع ، وطمره دون جوان في قبر الجسديات .

وهذه هي الحياة — تمثلها الليالي على ملعب الدهر نظير مأساة ،
وتنشدها الأيام كأغنية ، وفي النهاية تحفظها الأبدية كجوهرة ...

خليلي

لو علمت ، يا خليلي الفقير ، أن الفاقة التي تقضى عليك بالشقاء هي
هي التي توحى إليك معرفة العدل وتبثك إدراك كنه الحياة ، لرضيت
بقسمة الله . قلت : معرفة العدل لأن الغنى مشغول عن تلك المعرفة
بخزائنه . وقلت : كنه الحياة ، لأن القوى منصرف عنها إلى المجد ، فافرح
إذن بالعدل لأنك لسانه ، وبالحياة لأنك كتابها . وابتهج فأنت مصدر
فضيلة عاضدك ، وعاضد فضيلة الآخرين بيدك .

ولو دريت يا حبيبي الحزين أن الأرزاء التي أصبحت مغلوبها ، هي
تلك القوة التي تنير القلب وترفع النفس من دركات الاستهزاء إلى
درجات الاعتبار لقنعت بها إرثا ، وبتأثيراتها مهلبا ، وعلمت أن الحياة
سلسلة ذات حلقات آخذة بعضها برقاب البعض ، وأن الحزن حلقة
ذهبية تفصل بين الاستسلام لما آتى الحاضر والتعلل ببهجة الآتى ، كما يفصل
الصباح بين النوم واليقظة .

خليلي .. إن الفقر يطهر شرف النفس والغنى يبين لثومها ، والحزن
يلطف العواطف والسرور يدملها ، لأن الإنسان ما برح يستخدم المال
والسرور توصلا للازدياد مثلما يفعل باسم الكتاب شراً ينثره عنه
الكتاب ، وباسم الإنسانية ما تاباه الإنسانية .

لو باد الفقر ونأى الحزن لأصبحت النفس صحيفة خالية إلا من أرقام
تدل على الأنانية ومحبة الإكثار ، وألفاظ مفادها الشهوات الترابية ، لأنى
نظرت فوجدت الألوهية ، وهى الذات المعنوية فى الإنسان ، لاتباع
بالمال ولا تنمو بمسرات فتيان العصر . وتأملت فرأيت الغنى ينبذ ألوهيته
ويحرص على أمواله ، وفتى العصر يغادرها ويتبع ملذاته .

إن الساعة التى تصرفها أيها الفقير ، مع رفيقتك وصغارك بعد مجيئك
من الحقل ، هى رمز العائلة البشرية المستقبلية .. هى عنوان سعادة
الأجيال الآتية . والحياة التى يصرفها المثرى بين الخزائن هى حياة دنية
تحاكى حياة الدود فى القبور .. هى رمز الخوف .

والدموع التى تدرىها أيها الحزين ، هى أعذب من ضحك المتناسى ،
وأحلى من قهقهة المستهزىء . تلك دموع تغسل القلب من أدران
البغض ، وتعلم ذارفها كيف يشارك منكسرى القلب بشواغرة .. هى
دموع الناصرى .

إن القوة التى زرعتها أيها الفقير ، واستغلها الغنى القوى سوف تعود
إليك ، لأن الأشياء ترجع إلى مصادرها بحكم الطبيعة ، والأسى الذى
عانته أيها الحزين ، ينقلب فرحا بحكم السماء .

سوف تتعلم الأجيال الآتية المساواة من الفقر ، والمحبة من الأحران .

حديث الحب

في بيت منفرد جلس فتى في صبح الحياة ينظر آناً من النافذة إلى السماء
المزدانة بالكواكب ، وآونة إلى رسم صبية بين يديه ، رسم تنعكس
خطوطه وألوانه على وجهه فتظهر علته أسرار هذا العالم وخفايا الأبدية .
صورة ملاح امرأة تناجيه جاعلة عينيه آذاناً تفقه لغة الأرواح السابحة في
فضاء تلك الغرفة ، ومبتدعة من مجموعته قلباً أنارها الحب وأفعمها
الشوق .

كذا مرت ساعة ، كأنها دقيقة أحلام مستحبة أو عام من حياة
البقاء ، ثم وضع الفتى الرسم أمامه وأخذ قلماً وورقة وكتب :
« يا حبيبة نفسى !

إن الحقائق العظيمة الفائقة الطبيعة لا تنتقل من بشرى إلى آخر بواسطة
الكلام البشرى المتعارف ، لكنها تختار السكنى سيلاً بين النفوس . وأنا
أشعر بأن سكنى هذا الليل تسعى بين نفسينا حاملة رسائل أرق من تلك
التي يكتبها النسيم على وجه الماء تالية كتاب قلوبنا على قلوبنا .. ولكن مثلما
شاء الله وجعل النفوس فى أسر الأجسام شاء الحب وجعلنى أسير
الكلام .. يقولون يا حبيبتى إن الحب ينقلب بالعباد ناراً آكله ، وأنا
وجدت أن ساعة الفراق لم تقو على فصل ذاتينا المعنويتين ، مثلما علمت
عند أول لقاء أن نفسى تعرفك منذ دهور ، وأن أول نظرة إليك لم تكن

بالحقيقة أول نظرة ..

يا حبيبتى إن تلك الساعة التى جمعت قلبينا المنفيين عن العالم العلوى ،
هى ساعات قليلة تدعم اعتقادى بأزلية النفس وخلودها . فى مثل تلك
الساعة تكشف الطبيعة القناع عن وجه عدلها المتناهى والمظنون به
ظلماً ..

هل تذكرين يا حبيبتى ذاك الروض ، حيث وقفنا وكلانا ناظر وجه
حبيبه ؟ وهل تعلمين أن نظراتك كانت تقول لى إن محبتك لى لم تنبثق من
الشفقة على ؟ تلك النظرات التى علمتنى أن أقول لذاتى وللعالمين ، إن
العطاء الذى يكون مصدره العدل هو أعظم من الذى يتبدىء من
الحسنة ؟ وإن المحبة التى تبتدعها الظروف تشابه مياه المستنقعات .

أمامى يا حبيبتى حياة أريدها أن تكون عظيمة وجميلة . حياة تؤاخذ
ذكرى الإنسان الآتى وتستدعى اعتباره ومحبه . حياة قد ابتدأت عندما
لقيتك وأنا واثق بخلودها ، لأنى مؤمن بكونك قادرة على إظهار القوة
التي أودعنى الله إياها ، متجسمة بأقوال وأعمال كبيرة ، مثلما تستنبت
الشمس أزهار الحقل ذات العرف الطيب ، وكذا تظلم محبتى لى
وللأجيال ، وتبقى منزهة عن الأنانية لتعميمها ، ومتعالية عن الابتذال
لتخصيصها بك .

وقام الفتى ومشى بتمهل فى تلك الغرفة ، ثم نظر من النافذة ورأى
القمر قد طلع من وراء الأفق وملاً الفضاء أشعة لطيفة ، فرجع وكتب فى
تلك الرسالة :

« ساحينى يا حبيبتى فقد ناجيتك بضمير المخاطب ، وأنت نصفى

الجميل الذى فقدته عندما خرجنا من يد الله فى آن واحد .. سامحيني
يا حبيبتى .

الحيوان الأبكم

« فى نظرات الحيوان الأبكم كلام تفهمه نفس الحكيم »

(شاعر هندى)

فى عشية يوم تغلبت فيه تخيالاتى على عاقلتي مررت بأطراف أحياء
المدينة ، ووقفت أمام منزل مهجور تداعت أركانه وحطمت دعائمه ولم
يبق منه سوى أثر يخبر عن هجر طويل ، ويدل على زوال مخزن ، فرأيت
كلباً يتوسد الرماد وقد ملأت القروح جسمه الضعيف ، واستحكمت
العلل بهيكله المهزول ، فصار يرمق الشمس الجائحة نحو الغروب بعين
وسمت عليها أشباح الذل ، وبدت فيها مظاهر القنوط واليأس ، فكأنه
درى أن الشمس قد أخذت تسترجع حرارة أنفاسها عن تلك البقعة
المهجورة ، البعيدة عن الأولاد مضطهدى الحيوان الضعيف ، فصار
يرمقها بعين آسفة مودعة . فاقتربت منه على مهل ، وادألو عرفت النطق
بلسانه فأعزبه فى شدائده ، وأبدى له شفقة فى بؤسه . ولما دنوت منه
خافنى وتحرك ببقايا حياة قاربت الانحلال ، مستنجداً بقوائم شلتها العلة
وراقبها الفناء . وإذ لم يقو على النهوض نظر إلى نظرة فيها مرارة استرحام
وحلاوة استعطاف .. نظرة فيها انعطاف وملامة .. نظرة قامت مقام
النطق . فكانت أفصح من لسان الإنسان ، وأبلغ من دموع المرأة . ولما

تلاقت عيناى بعينيه الخزيتين تحركت عواطفى وتمايلت تأثيراتى ،
فجسمت تلك النظرات وابتدعت لها أجساداً من كلام متعارف بين
البشر . نظرات مفادها : « كفى ما بى يا هذا . وكفى ما عانيت من
اضطهاد الناس ، وما قاسيت من ألم الأمراض . امض واتركنى
وسكيتى أستمد من حرارة الشمس دقائق الحياة ، فقد هربت من مظالم
ابن آدم وقسوته ، والتجأت إلى رماد أكثر نعومة من قلبه ، واختبأت بين
خرائب أقل وحشة من نفسه . اذهب عنى فما أنت إلا من سكان أرض
ما برحت ناقصة الأحكام ، خالية من العدل . أنا حيوان حقير لكنتى
خدمت ابن آدم وكنت فى منزله مخلصاً ووفياً ، وفى رفقة متربصاً
وجاسوساً . كنت شريكاً فى أحزانه ، ومغبوطاً فى أفراحه ، متذكراً أيام
بعده ، مترحباً عند مجيئه ، وكنت أكتفى بفتات مائدته ، وأسعد بعظم
حرده بأضراسه . ولكن لما شخت وهرمت وأنشبت الأمراض فى
جسمى أظافرها ، نبذنى ، وأبعدنى عن داره ، وصيرنى ملعبة لصبيان
الأزقة القساة ، وهدفاً لنبال العلل ، ومخطأً لرجال الأقدار . أنا يا ابن آدم
حيوان ضعيف ، ولكنى وجدت نسبة كائنة بينى وبين الكثيرين من
إخوانك البشر ، الذين إذا ما ضعفت قواهم قل رزقهم وساء حالهم ، أنا
مثل جنود يحاربون عن الوطن فى شبيبتهم ، ويستثمرون الأرض فى
كحولتهم ، حتى إذا ما جاء شتاء الحياة وقل نفعهم ، أبعدهم
ونسوهم . أنا مثل امرأة تجملت صبية لتفريج قلب الشبية ، وسهرت
زوجة فى الليالى لتربية الأطفال ، وتعبت امرأة لإيجاد رجال المستقبل ،
ولكن لما شاخت وعجزت أصبحت نسياً منسياً ، وأمراً مكروها .. آه

ما أظلمك يا ابن آدم وما أقساك ! .
كانت نظرات ذلك الحيوان تتكلم ، وقلبي يفهم ، ونفسي تتراوح
بين شفقتي عليه وتصوراتي بأبناء جلدتي . ولما أغمض عينيه لم أشأ
إزعاجه فذهبت ..

السلم

سكنت العاصفة بعد أن لوت الأغصان وأحنت الزروع ، وبانت
النجوم كأنها بقايا البرق المتكسرة على أديم السماء ، وسكنت تلك
الحقول كأن حرب العناصر لم تكن .
في تلك الساعة دخلت الصبية مرقدتها ، وجثت على سريرها وبكت
بكاء مرأ ، ثم تصاعدت زفراتها وتجمست أنفاسها الحارة بهذه الكلمات :
« رده إلهي يا رب ، فقد جفت دموعي وذابت حشاشتي . أرجعه أيها
الروح القاضى بحكمة تسمو عن نهى الإنسان ، فقد جفاني التجلد
وتحكمت بنى الأسى . خلصه من بين مخالب الحرب المحددة .. أنقذه من
الموت القاسى ، وارحمه فتى ضعيفاً جنت عليه قوة القوى فسلبني إياه ..
تغلب أيتها المحبة على عدوتك الحرب ، أو خلصى حبيبي فهو من أبنائك ..
ابتعد عنه أيها الموت ودعه يرني أو تعال وخذني إليه » .
في تلك الدقيقة دخل فتى تضم رأسه عصائب بيضاء كتبت عليها
الهيحاء أحرفاً قرمزية ، واقترب من الصبية وحياها بدمعة وابتسامة ، ثم
أخذ يدها ووضعها على شفثيه الملتهبتين ، وبصوت تألفت فيه عوامل
(دمة وابتسامة)

الحب الخارج ومفاعيل اللقاء المفرح قال : « لا تجفلى فقد أتى من تبكين من أجله .. افرحى فقد أعاد إليك السلم من سرقة الحرب ، وأرجع إليك فتى الإنسانية ما سلبه ابن المطامع . كفكفى الدمع يا حبيبتى وابتسمى ، لأن للشعوب أئمة ترحم متى عمت قساوة أئمة الشعوب .. لا تعجبنى من إيابى حياً ، فللحب وسم يراه الموت فينصرف ، ويتوسمه العدو فيقهقر .. أنا هو ، فلا تحسبيني خيالا جاء من مرتع المنايا ليزور مربعا يسكنه جمالك والسكون : لا تخافى فأنا حقيقة سلمت من بين الأسنة والنار لتخبر الناس بلغة الحب على الحرب .. أنا كلمة لفظها رجل السلم لتكون توطئة لرواية سعادتك .»

انعقد اللسان إذ ذاك وناب الدمع عن الكلام ، وحامت ملائكة السرور حول ذلك الكوخ الحقير واسترجع القلبان ما فقدها عند الوداع .

ولما جاء الصباح وقف الاثنان في وسط الحقل يتأملان في جمال الطبيعة ، وبعد سكونة فيها من الأحاديث ما فيها ، نظر الجندي نحو المشرق الأقصى وقال لحبيته : « انظري الشمس طالعة من الظلمة .»

الشاعر

حلقة توصل بين هذا العالم والآتى . منهل عذب تستقى منه النفوس
العاطشة . شجرة مغروسة على ضفة نهر الجمال ذات ثمار يانعة تطلبها
القلوب الجائعة . بلبل يتنقل على أغصان الكلام وينشد أنغاماً تملأ خلايا
الجوارح لطفاً ورقة . غيمة بيضاء تظهر فوق خط الشفق ثم تتعاضم
وتتصاعد وتملأ وجه السماء وتنسكب لتروى أزهار حقل الحياة . ملك
بعثه الآلهة ليعلم الناس الإلهيات . نور ساطع لا تغلبه ظلمة ولا يخفيه
مكيال ملأته زيتاً عششوت إلهة الحب ، وأشعله أبولون إله الموسيقى .
وحيد يرتدى البساطة ويتغذى اللطف ، ويجلس على أحضان الطبيعة
ليتعلم الإبداع ، ويسهر فى سكينة الليل منتظراً هبوط الروح . زراع
يذر حبات قلبه فى رياض الشواعر فتبت زرعاً خصيباً ، تستغله
الإنسانية وتتغذى به .

هذا هو الشاعر الذى تجهله الناس فى حياته ، وتعرفه عندما يودع هذا
العالم ويعود إلى موطنه العلوى . هذا الذى لا يطلب من البشر إلا ابتسامة
صغيرة ، والذى تتصاعد أنفاسه وتملأ الفضاء أشباحاً حية جميلة ، والناس
تبخل بالخبز والمأوى .

فإلى متى أيها الإنسان .. إلى متى أيها الكون تقيم من الفخر بيوتاً للألى
جبلوا أديم التراب بالدماء وتعرض بتهامل عن الذين يهبونك من محاسن

أنفسهم سلاماً ووداعة ؟ وحتى مَ تعظم القتلة والذين أحنوا الرقاب بنير
الاستعباد ، وتتناسى رجالاً يسكبون نور الأحداق في ظلمة الليل
ليعلموك أن ترى بهاء النهار ، ويصرفون العمر بين مخالف الشقاء كيلاً
تفوتك لذة السعادة .

وأنتم يا أيها الشعراء يا حياة هذه الحياة ، قد تغلبتم على الأجيال قسراً
عن قساوة الأجيال ، وفزتم بإكليل الغار غصباً عن أشواق الغرور ،
وملكتم في القلوب وليس لملككم نهاية وانقضاء ، يا أيها الشعراء .

يوم مولدى

كنت فى باريس فى ٦ كانون الأول « ديسمبر » سنة ١٩٠٨ . فى مثل هذا اليوم ولدتنى أمى .

فى مثل هذا اليوم ، منذ خمس وعشرين سنة ، وضعتنى السكينة بين أيدي هذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك .

ها قد سرت خمساً وعشرين مرة حول الشمس ، ولا أدرى كم مرة سار القمر حولي ، لكننى لم أدرك بعد أسرار النور ، ولا عرفت خفايا الظلام . قد سرت خمساً وعشرين مرة مع الأرض والقمر والشمس والكواكب ، حول الناموس الكلى الأعلى . ولكن هو ذا نفسى تهمس الآن أسماء ذلك الناموس مثلما ترجع الكهوف صدى أمواج البحر ، فهى كائنة بكيانه ، ولا تعلم ماهيته ، وتترنم بأغاني مده وجزره ، ولا تستطيع إدراكه .

منذ خمس وعشرين سنة خطتني يد الزمان كلمة فى كتاب هذا العالم الغريب الهائل . وها أنذا كلمة مبهمة ، ملتبسة المعانى ، ترمز تارة إلى لا شئ ، وطوراً إلى أشياء كثيرة .

إن التأملات والأفكار والتذكارات تتزاحم على نفسى فى مثل هذا اليوم من كل سنة ، وتتوقف أمامى مواكب الأيام الغابرة ، وترينى أشباح الليالى الماضية ، ثم تبدها كما تبدد الرياح بقايا الغيوم فوق خط الشفق ،

فتضمنحل في زوايا غرفتي اضمحللال أناشيد السواقى فى الأودية البعيدة الخالية .

فى مثل هذا اليوم من كل سنة ، تجيء الأرواح التى رسمت روحى متراكضة نحوى من جميع أطراف العالم ، وتحيط بى مرتلة أغانى الذكرى المحزنة ، ثم تتراجع على مهل وتختفى وراء المرثيات كأنها أسراب من الطير هبطت على بيدر مهجور فلم تجد بذوراً تلتقطها ، فرفرت هنيهة ثم طارت سابحة إلى مكان آخر .

فى هذا اليوم تتصب أمامى معانى حياىى العابرة كأنها مرآة ضعيلة ، أنظر فيها طويلاً فلا أرى سوى أوجه السنين الشاحبة كأوجه الأموات ، وملاح الآمال والأحلام والأمانى المتجعدة كملاح الشيوخ . ثم أغمض عيني وأنظر ثانياه فى تلك المرآة فلا أرى غير وجهى ، ثم أهدق بوجهى فلا أرى فيه غير الكآبة ، ثم أستنطق الكآبة فأجدها خرساء لا تتكلم ، ولو تكلمت الكآبة لكانت أكثر حلاوة من الغبطة .

فى الخمس والعشرين سنة الغابرة قد أحببت كثيراً . وكثيراً ما أحببت ما يكرهه الناس وكرهت ما يستحسنونه . والذى أحببته عندما كنت صبياً ما زلت أحبه الآن . والذى أحبه الآن سأحبه إلى نهاية الحياة ، فالحبة هى كل ما أستطيع أن أحصل عليه ، ولا يقدر أحد أن يفقدنى إياها .

قد أحببت الموت مرات عديدة ، فدعوته بأسماء عذبة أتشيب به سراً وعلناً . ولئن لم أرسل الموت ولا نقضت له عهداً فإننى صرت أحب الحياة أيضاً . فالموت والحياة قد تساويا عندى بالجمال ، وتضارعا

باللذة ، وتشاركنا بإنماء شوقى وحنينى ، وتساهما محبتى وانعطافى .
وقد أحببت الحرية فكانت محبتى تنمو بنمو معرفتى عبودية الناس
للجور والهوان ، وتتسع باتساع إدراكى خضوعهم للأصنام الخيفة التى
نحتها الأجيال المظلمة ، ونصبتها الجهالة المستمرة ، ونعمت جوانبها
ملاص شفاه العبيد ، لكننى كنت أحب هؤلاء العبيد بمحبتى الحرية ،
وأشفق عليهم لأنهم عميان يقبلون أحنك الضواري الدامية ولا
يبصرون . ويمتصون لهات الأفاعى الخبيثة ولا يشعرون ، ويحفرون
قبورهم بأظافرهم ولا يعلمون . قد أحببت الحرية أكثر من كل شىء
لأننى وجدتتها فتاة قد أضناها الانفراد ، وأنحلها الاعتزال ، حتى صارت
خيالا شفافا يمر بين المنازل ، ويقف فى منعطفات الشوارع ، وينادى
عابري الطريق ، فلا يسمعون ولا يلتفتون .

وفى الخمس والعشرين سنة قد أحببت السعادة مثل جميع البشر ،
فكنت أستيقظ كل يوم وأطلبها كما يطلبونها ، لكننى لم أجدها قط فى
سبيلهم ، ولا رأيت أثر أقدامها على الرمال المحيطة بقصورهم ، ولا
سمعت صدى صوتها خارجاً من نوافذ هياكلهم . ولما انفردت بطلبها
سمعت نفسى تهمس فى أذنى قائلة : « السعادة صبية تولد وتحميا فى أعماق
القلب ، ولن تجيء إليه من محيطه » . ولما فتحت قلبى لكى أرى السعادة
وجدت هناك مرآتها وسريرها وملابسها ، لكننى لم أجدها .

وقد أحببت الناس — أحببتهم كثيراً — والناس فى شرعى ثلاثة :
واحد يلعن الحياة ، وواحد يباركها ، وواحد يتأمل بها ، فقد أحببت
الأول لتعاسته ، والثانى لسماحته ، والثالث لمداركه .

هكذا انقضت الخمس والعشرون سنة . وهكذا ذهبت أيامي وليالي
متسارعة ، متتابعة ، متساقطة من حياتي ، مثلما تتناثر أوراق الشجر
: أمام رياح الخريف .

واليوم ، وقد وقفت متذكراً وقوف سائر متعب بلغ منتصف
العقبة ، أنظر إلى كل ناحية فلا أرى لماضي حياتي أثراً أستطيع أن أوميء
إليه أمام وجه الشمس قائلاً : هذا لي . ولا أجد لفصول أعوامي غلة
سوى أوراق مخضبة بقطرات الحبر السوداء ، ورسوم غريبة مبعثرة مملوءة
خطوطاً وألواناً متباينة متناسقة . في هذه الأوراق المنثورة ، والرسوم
المبعثرة ، قد كفنت ودفنت عواطفى وأفكارى وأحلامى ، مثلما يدفن
الزراع البذور في بطن الأرض ، ولكن الزارع الذى يخرج إلى الحقل
ويلقى البذور بين ثنايا التراب ، يعود إلى بيته في المساء آملاً راجياً منتظراً
أيام الحصاد والاستغلال . أما أنا فقد طرحت حبات قلبى بلا أمل ، ولا
رجاء ، ولا انتظار .

والآن وقد بلغت هذه المرحلة من العمر ، فترأى لى الماضى من وراء
ضباب التهيد والأسى ، وبان لناظرى المستقبل من وراء نقاب الماضى ،
أقف وأنظر إلى الوجود من خلال بلور نافذتى ، وأرى وجوه الناس وأسمع
أصواتهم متصاعدة إلى الفضاء ، وأعى وقع أقدامهم بين المنازل ، وأشعر
بملامس أرواحهم وتموجات أميالهم ونبضات قلوبهم ، أنظر فأرى
الأطفال يلعبون ويزرون التراب بعضهم فى وجوه بعض ضاحكين
مقهقهين ، وأرى الفتيان يسرون بعزم رافعين رؤوسهم ، كأنهم
يقرأون قصيدة الشباب مكتوبة بين حواشى الغيوم المبطنة بأشعة

الشمس ، وأرى الصبايا يخطرن وينثنين كالأغصان ، ويتسمن كالأزهار ، وينظرن إلى الفتيان من وراء جفون ترتعش بالليل والانعطاف ، وأرى الشيوخ يمشون على مهل محدودى الظهور ، متوكئين على العصي ، محدقين بالأرض ، كأنهم يبحثون بين دقائق التراب عن جواهر أضاعوها . أقف بجانب نافذتى وأنظر متأملاً بجميع هذه الصور والأشباح الساكنة بمسيرها ، المتطائرة بدبيبها فى شوارع المدينة وأزقتها ، ثم أنظر متأملاً بما وراء المدينة فأرى البرية بكل ما فيها من الجمال الرهيب ، والسكينة المتكلمة ، والتلول الباسقة ، والأودية المنخفضة ، والأشجار النامية ، والأعشاب المتمايلة ، والأزهار المعطرة ، والأنهار المترنمة ، والأطيوار المفردة . ثم أنظر إلى ما وراء البرية فأرى البحر بكل ما فى أعماقه من الغرائب والعجائب ، والمدافن والأسرار ، وما على سطحه من الأمواج المزبدة ، الغضوبية المتسارعة المتهاونة ، والأبخرة المتصاعدة ، المتبددة ، المتساقطة ، ثم أنظر متأملاً بما وراء البحر ، فأرى الفضاء غير المتناهى بكل ما فيه من العوالم السابحة ، والكواكب اللامعة ، والشموس والأقمار ، والسيارات والثوابت ، وما بينهما من الدوافع والجواذب المتسائلة . المتنازعة المتولدة ، المتحولة المتماسكة بناموس لا حد له ولا مدى ، الخاضعة لشروع كلى ليس لبدئه ابتداء ولا لنهايته نهاية . أنظر وأتأمل بجميع هذه الأشياء من خلال بلور نافذتى ، فأنسى الخمس والعشرين وما جاء قبلها من الأجيال وما سيأتى بعدها من القرون ، ويظهر لى كيانى ومحيطى بكل ما أخفاه وأعلنه ذرة من تنهدة طفل ترتجف فى خلاء أزلى الأعماق ، سرمدى العلو ، أبدى الحدود .

لكننى أشعر بكيان هذه الذرة .. هذه النفس .. هذه الذات التى أدعوها
« أنا » . أشعر بحراكها ، وأسمع ضجيجها فهى ترفع الآن أجنحتها نحو
العلاء ، وتمتد يداها إلى كل ناحية ، وتمايل مرتعشة فى مثل اليوم الذى
أبانها للوجود ، وبصوت متصاعد من قدس أقداسها تصرخ قائلة :
« سلام أيتها الحياة ! سلام أيتها اليقظة ! سلام أيتها الرؤيا سلام أيتها النهار
الغامر بنورك ظلمة الأرض ! و سلام أيتها الليل المظهر بظلمك أنوار
السماء ؛ سلام أيتها الفصول ! سلام أيتها الربيع المعيد شبيبة الأرض !
سلام أيتها الصيف المذيع مجد الشمس ! سلام أيتها الخريف الواهب ثمار
الأتعاب وغلة الأعمال ! سلام أيتها الشتاء المرجع بثوراتك عزم الطبيعة !
سلام أيتها الأعوام الناشرة ما أخفته الأعوام ! سلام أيتها الأجيال المصلحة
ما أفسدته الأجيال ! سلام أيتها الزمن السائر بنا نحو الكمال ! سلام أيتها
الروح الضابط أعنة الحياة ، المحجوب عنا بنقاب الشمس ! و سلام لك
أيها القلب لأنك تستطيع أن تهزأ بالسلام وأنت مغمور بالدموع ! و سلام
لك أيتها الشفاه لأنك تلتفظين بالسلام وأنت تذوقين طعم المرارة » .

الطفل يسوع والحب الطفل

كنت بالأمس وحيداً في هذا العالم يا حبيبتى ، وكانت الوحدة قاسية كالموت ، وكنت منفرداً كالزهرة النابتة في ظل الصخور المتعالية فلا تشعر الحياة بوجودى ، ولا أنا أشعر بكيان الحياة ، واليوم قد استيقظت نفسى ورأتك منتصبه بقربها ، فتهيت وتهللت ، ثم سجدت أمامك مثلما فعل ذلك الراعى عندما رأى العليقة مشتعلة .

كانت بالأمس ملامس الهواء خشنة يا حبيبتى ، وأشعة الشمس ضعيفة ، وكان الضباب يستر وجه الأرض ، وضجيج أمواج البحر يشابه الرعود القاصفة . وكنت أتلفت إلى كل ناحية فلا أرى غير ذاتى المتوجعة واقفة بجانبى ، وخيالات الظلمة تهبط وتتصاعد حولى كالغربان الجائعة . واليوم قد خف الهواء ، وغمر النور الطبيعة وسكنت الأمواج ، وانقشعت الغيوم ، فكيفما نظرت أراك وأرى أسرار الحياة محيطة بك كالهالات التى يحدثها جسم العصفور على وجه البحيرة الهادئة ، عندما يتحطم بمائها الهادئ .

كنت بالأمس كلمة صامتة في خاطر الليالى ، فأصبحت أغنية مفرحة على ألسن الأيام . وقد تم هذا كله في دقيقة واحدة مؤلفة من نظرة وكلمة ، وتنهدة وقبله . تلك الدقيقة يا حبيبتى قد جمعت بين استعدادات نفسى الغابرة وأمانها الآتية ، فكانت كالوردة البيضاء

الخارجة من قلب الأرض المظلم إلى نور النهار ، تلك الدقيقة هي من كل حياتي بمنزلة ميلاد يسوع من كل الأجيال ، لأنها كانت مملوءة روحاً وطهراً ومحبة .. لأنها جعلت الظلمة في أعماق شعاعاً ، والكآبة مرحة ، والشقاء سعادة .

إن شعلات المحبة يا حبيبتى تهبط من السماء متموجة بصور متباينة ، وأشكال متنوعة ، لكن فعلها وتأثيرها في هذا العالم هو واحد ! فالشعلة الصغيرة تنير خلايا قلب الإنسان الفرد ، هي كالشعلة العظيمة المشعشة التي تنحدر من الأعلى وتنير ظلمات الأمم جميعها ، لأن في النفس الواحدة عناصر وأميال وعواطف لا تختلف قط عن العناصر والأميال والعواطف الكائنة في نفس العائلة البشرية .

كان اليهود يا حبيبتى يترقبون مجيء عظيم موعود به منذ ابتداء الدهر ليخلصهم من عبودية الأمم ، وكانت النفس الكبيرة في اليونان ترى أن عبادة المشتري ومينرفا قد ضعفت فلم تعد تشبع الأرواح من الروحيات . وكان الفكر السامبي في رومه يتأمل فيجد أن ألوهية أبولون أصبحت تتباعد عن العواطف ، وجمال فينيس الأبدى قد أخذ يقترب من الشيخوخة ، وكانت الأمم كلها تشعر على غير معرفة منها بمجاعة نفسية إلى تعاليم مترفعة عن المادة ، وبميل عميق إلى الحرية الروحية التي تعلم الإنسان أن يفرح مع قريبه بنور الشمس وجمال الحياة . تلك هي الحرية الجميلة التي تخول الإنسان أن يقترب من القوة غير المنظورة بلا خوف ولا وجل ، بعد أن يقنع الناس طراً بأنه يقترب منهم من أجل سعادتهم .

كان ذلك كله من ألفى سنة يا حبيبتى ، عندما كانت عواطف القلب

البشرى تحوم مرفرفة حول المرثيات وتخشى الدنو من الروح الكلى الخالد .. عندما كان « بان » إله الأرواح يملأ نفوس الرعاة جزعا ، وبعلى إله الشمس يضغط بأيدي كهانه على قلوب المساكين والضعفاء .

ففى ليلة واحدة ، بل فى ساعة واحدة ، بل فى لحظة واحدة تنفرد عن الأجيال لأنها أقوى من الأجيال ، انفتحت شفاه الروح ولفظت « كلمة الحياة » التى كانت فى البدء عند الروح ، فنزلت مع نور الكواكب وأشعة القمر ، وتجسدت وصارت طفلا بين ذراعى ابنة من البشر فى مكان حقير ، حيث يحمى الرعاة مواشيمهم من كواسر الليل .. ذلك الطفل النائم على القش اليابس فى مذود البقر .. ذلك الملك الجالس فوق عرش مصنوع من القلوب المثقلة بنير العبودية ، والنفوس الجائعة إلى الروح ، والأفكار التائقة إلى الحكمة .. ذلك الرضيع الملتف بأثواب أمه الفقيرة ، قد انتزع بلطفه صولجان القوة من المشتري وأسلمه للراعى المسكين المتكىء على الأعشاب بين أغنامه ، وأخذ الحكمة من مينرفا برقته ووضعها على لسان الصياد الفقير الجالس فى زورقه على شاطئ البحيرة ، واستخلص الغبطة بحزن نفسه من أبولون ووهبها لكسير القلب الواقف مستعصياً أمام الأبواب . وسكب الجمال بجماله من فينوس وبثه فى روح المرأة الساقطة الخائفة من قساوة المضطهدين ، وأنزل البعل عن جبروته وأقام مكانه الفلاح البائس الذى ينثر فى الحقل البذور مع عرق الجبين .

أو لم تكن عواطفى بالأمس كأسياب إسرائيل يا حبيبتى ؟ أما ترقت

في سكونة الليل مجيء مخلص ينقذني من عبودية الأيام ومتاعبها ؟ أما شعرت كالأمم الغابرة بالمجاعة الروحية العميقة ؟ أما سرت على طريق الحياة مثل صهي ضائع بين الأحياء المهجورة ؟ أو لم تكن نفسى كالنواة المطروحة على الصخر لا الطير يلتقطها فيميتها ، ولا العناصر تشقها فتحيتها .

قد كان ذلك كله بالأمس يا حبيبتى ، عندما كانت أحلامي تدب في جوانب الظلمة وتخاف الاقتراب من النور .. عندما كان اليأس يلوى أضلعي والضجر يقومها .

ففى ليلة واحدة ، بل فى ساعة واحدة ، بل فى لحظة واحدة تتنحى عن سنى حياتى لأنها أجمل من سنى حياتى ، هبط الروح من وسط دائرة النور الأعلى ، ونظر إلى من وراء عينيك ، وتكلم معى بلسانك . ومن تلك النظرة وهاتيك الكلمة انبثق الحب وحل فى أعشار قلبى .. هذا الحب العظيم الجالس فى هذا المذود المنزوى فى صدرى .. هذا الحب الجميل الملتف بأقمطة العواطف .. هذا الرضيع اللطيف المتكى على صدر النفس قد جعل الأحزان فى باطنى مسرة ، واليأس مجداً ، والوحدة نعيماً . هذا الملك المتعالى فوق عرش الذات المعنوية ، قد أعاد بصوته الحياة لأيامى الميتة ، وأرجع بملامسه النور إلى أجفانى المقرحة بالدموع ، وانتشل يمينه آمالى من لجة القنوط .

كان كل الزمن ليلا يا حبيبتى فصار فجراً ، وسيصير نهراً لأن أنفاس الطفل يسوع قد تخللت دقائق الفضاء ومازجت ثانويات الأثير . وكانت

حياتي حزناً فصارت فرحاً وستصير غبطة ، لأن ذراعى الطفل قد
ضمنا قلبى وعانقتا نفسى .

مناجاة أرواح

استيقظى يا حبيبتى . استيقظى لأن روحى تناديك من وراء البحار
الهائلة ، ونفسى تمد جناحها نحوك فوق الأمواج المزبدة الغضوبية .
استيقظى فقد سكنت الحرية ، وأوقف الهدوء ضجة سنايك الخيل ووقع
أقدام العابرين ، وعانق النوم أرواح البشر فبقيت وحدى مستيقظاً لأن
الشوق ينتشلى كلما أغرقنى النعاس ، والمحبة تدنينى إليك عندما
تقصينى الهواجس . قد تركت مضجعى يا حبيبتى خوفاً من خيالات
السلو المختبئة بين طيات اللحف ، ورميت بالكتاب لأن تأوهى قد أباد
السطور من صفحاته فأصبحت خالية بيضاء أمام عينى . استيقظى !
استيقظى يا حبيبتى واسمعينى !

— ها أناذا يا حبيبتى ! قد سمعت نداءك من وراء البحار ، وشعرت
بملمس جناحيك فانتبهت وتركت مخدعى وسرت على الأعشاب فتبللت
قدمائى وأطراف ثوبى من ندى الليل ! ها أنا واقفة تحت أغصان اللوز
المزهرة أسمع نداء نفسك يا حبيبتى !

— تكلمى يا حبيبتى ! ودعى أنفاسك تسيل مع الهواء القادم نحوى
من أودية لبنان . تكلمى فلا سامع غيرى ، لأن الظلمة قد دحرت جميع
المخلوقات إلى أوكارها ، والنعاس أسكر سكان المدينة ، وبقيت وحدى

صاحيا .

قد نسجت السماء نقاباً من أشعة القمر وألقته على جسد لبنان
يا حبيبي !

— قد حاكت السماء من ظلمة الليل رداءً كثيفاً مبطناً بدخان المعامل
وأنفاس الموت ، وسترت به أضلع المدينة يا حبيبتى !
— قد رقد سكان القرى في أكواخهم القائمة بين أشجار
الجوز والصفصاف ، وتسابقت نفوسهم نحو مراسح الأحلام يا حبيبي
— قد أناخت أحمال الذهب قامات البشر ، وأوهنت عقبات المطامع
ركبهم ، وأثقلت المتاعب أجفانهم فارتموا على الفرش ، وأشباح الخوف
والقنوط تعذب قلوبهم يا حبيبتى !

— قد سرت في الأودية خيالات الأجيال الغابرة ، وحامت على
الروابي أرواح الملوك والأنبياء ، فأنثت فكرتي نحو مسارح الذكرى
وأرتنى عظام الكلدانيين وفخامة الآشوريين ونبالة العرب .
— قد سرت في الأزقة أرواح اللصوص القاتمة ، وظهرت من بين
شقوق النوافذ رؤوس أفاعى الشهوات ، وجرت في منعطفات الشوارع
أنفاس الأمراض ممزوجة بلهات المنايا ، فأزاحت الذكرى ستائر
النسيان ، وأرتنى مكاره صادوم وآثام عاموره .

— قد تمايلت الأغصان يا حبيبي ، وتحالف حفيفها مع خرير ساقية

الوادي ، ورددت على مسامعي نشيد سليمان ورنات قيثارة داود وأغاني
الموصلى .

— قد ارتعشت نفوس أطفال الحى وأقلقهم الجوع ، وتسارعت
تهديدات الأمهات المضطجعات على أسرة الهم واليأس ، وأراعت أحلام
العوز قلوب الرجال المقعدين ، فسمعت نواحاً مرأً وزفيراً متقطعاً يملأ
الضلوع ندباً ورثاء . .

— قد فاحت روائح النرجس والزنبق ، وعانقت عطر الياسمين
والبيلسان ، ثم تمازجت بأنفاس الأرز الطيبة ، وسرت مع تموجات
النسيم فوق الطلول المتشعبة والممرات الملتوية ، فملأت النفس انعطافاً
ومنحتها حنيناً إلى الطيران .. قد تصاعدت روائح الأزقة الكريمة
واختمرت بجراثيم العلل ، ومثل أسهم دقيقة خافية قد خدشت الحس
وسممت الهواء .

— ها قد جاء الصباح يا حبيبي ، وداعبت أصابع اليقظة أجفان
النيام ، وفاضت الأشعة البنفسجية من وراء الجبل ، وأزالت غشاء الليل
من عزم الحياة ومجدها ، فاستفاقت القرى المتكئة بهدوء وسكينة على
كتفى الوادي ، وترنمت أجراس الكنائس وملأت الأثير نداء مستحجاً
معلنة بدء صلاة الصباح ، فأرجعت الكهوف صدى رنينها كأن الطبيعة
بأسرها قامت مصلية . وقد غادرت العجول مرايضها ، وتركت قطعان
الغنم والماعز حظائرها ، وانثت نحو الحقول ترتعى رؤوس الأعشاب
المتلمعة بقطر الندى .. ومشى أمامها الرعاة ينفخون الشبابات ،
ووراءها الصبايا المتأهلات مع العصافير بقدم الصباح .

(دمة وابتسامة)

— قد جاء الصباح يا حبيبي وانبسطت فوق المنازل المكردسة أكف
النهار الثقيلة ، فأزيجت الستائر عن النوافذ وانفتحت مصاريع الأبواب ،
فبانّت الوجوه الكالحة والعيون المعروكة ، وذهب التعساء إلى المعامل
وداخل أجسادهم يقطن الموت في جوار الحياة ، وعلى ملامحهم المنقبضة
قد بان القنوط والخوف كأنهم منقادون قهراً إلى عراق مهلك . ها قد
غصت الشوارع بالمسرعين الطامعين ، وامتأ الفضاء من قلقة الحديد
ودوى الدواليب وعويل البخار ، وأصبحت المدينة ساحة قتال يصرع
فيها القوى الضعيف ، ويستأثر الغنى المظلوم بأتعاب الفقير المسكين .

* * *

— ما أجمل الحياة ههنا يا حبيبي ، فهي مثل قلب الشاعر المملوء نوراً
ورقة .

— ما أقسى الحياة ههنا يا حبيبي ، فهي مثل قلب المجرم المفعم بالإثم
والمخاوف .

أيتها الريح

تمرين أنا فرحة مترنحة ، وآونة متأوهة نادبة ، فسمعك ولا
نشاهدك ، ونشعر بك ولا نراك ، فإنك بحر من الحب يغمر أرواحنا ولا
يغرقها ، ويتلاعب بأفئدتها وهي ساكنة .

تتصاعدين مع الروابي وتنخفضين مع الأودية وتنسطين مع السهول
والمروج ، ففي تصاعدك عزم ، وفي انخفاضك رقة ، وفي انبساطك
رشاقة ، فكأنك ملك رؤوف يتساهل مع الضعفاء الساقطين ، ويرفع مع
الأقوياء المتشامخين .

في الخريف تنوحين في الأودية فتبكي لنواحك الأشجار ، وفي الشتاء
تثورين بشدة فتثور معك الطبيعة بأسرها ، وفي الربيع تعتلين وتضعفين
ولضعفك تستفيق الحقول ، وفي الصيف تتوارين وراء نقاب السكون
فبخالك ميتاً قتلته سهام الشمس ثم كفتته بحرارتها .

لكن .. أنادبة كنت أيام الخريف ، أم ضاحكة من خجل الأشجار
بعد عريتها من ملابسها ؟ أغاضبة كنت أيام الشتاء ، أم راقصة حول قبور
الليالي المكلسة بالثلوج ؟ أعليبة كنت أيام الربيع ، أم حبيبة أضناها البعاد
فجاءت تسعد بالتنهد أنفاسها على وجه حبيبها شاب الفصول لتنبه من
رقاده ؟ أميئة كنت أيام الصيف أم هاجعة في قلوب الأثمار ، وبين جففات
الكروم ، وعلى بيادر القش ؟ .

أنت تحملين من أزقة المدينة أنفاس العلل ، ومن الروابي أرواح
الأزهار ، وهكذا تفعل النفوس الكبيرة التي تحمل أوجاع الحياة
بسكينة ، وبسكينة تلتقى بأفراحها .

أنت تهمسين في أذن الورد أسراراً غريبة تفهم مفادها ، فتضطرب
تارة ، وطوراً تبسم ، وهكذا تفعل الآلهة بأرواح البشر .

أنت تبطين هنا وتسارعين هناك وتراكضين هنالك ، ولكنك
لا تقفين قط . وهكذا تفعل فكرة الإنسان التي تحيا بالحركة وتموت
بالسبات .

أنت تكتبين على وجه البحيرة أشعاراً ثم تمحينها . وهكذا يفعل
الشعراء المترددون . من الجنوب تحيين حارة كالحبة ، ومن الشمال تأتين
باردة كالموت ، ومن المشرق لطيفة كلامس الأرواح ، ومن المغرب
تندفين شديدة كالبغضاء . أمقلبة أنت كالدهر ! أم أنت رسول
الجهات تبلغين إلينا ماتاً تمك عليه ؟

تمرين غاضبة في الصحارى فتدوسين القوافل بقساوة ، ثم تلحدينها
بلحف الرمال . فهل أنت أنتِ ذاك السيل الخفى المتموج مع أشعة الفجر
بين أوراق الغصون ، المنسل كالأحلام في منعطفات الأودية ، حيث
تتايل الأزهار شغفاً بك ، وتتخاصر الأعشاب سكرًا من أنفاسك ؟ .
تثورين ظلماً في البحار فتحركين ساكن أعماقها ، حتى إذا أزدت
حنقاً عليك فتحت فاهما لجة ولقمتها من السفن والأرواح لقما مرة . فهل
أنت أنت ذلك المحب المتلاعب حنواً بغدائر الأطفال المتراكضين حول
المنازل ! إلى أين تتسارعين بأرواحنا وتهداتنا وأنفاسنا ؟ إلى أين تحملين
رسوم ابتساماتنا ؟ وماذا تفعلين بشعلات قلوبنا المتطايرة ؟ هل تذهبين

بها إلى ما وراء الشفق .. إلى ما وراء هذه الحياة ؟ أم تجرّينها فريسة إلى
المغاور البعيدة والكهوف المخيفة ، وهناك تقذفينها يميناً وشمالاً حتى
تضمحل وتختفي ؟ .

في سكينة الليل تبيح لك القلوب أسرارها ، وعند الفجر تحلك العيون
اهتزازات أجفانها . فهل أنت ذا كرة ما شعرت به القلوب وما رآته
العيون ؟ .

بين جنحيك يستودع الفقير صدى انسحاقه ، واليتيم حرقة ،
والخزينة تأوهاتها . وطى أثوابك يضع الغريب حنينه ، والمتروك لهفته ،
والساقطة عويل نفسها . فهل أنت حافظة لهؤلاء الصغار ودائعهم ؟ أم
أنت كهذه الأرض لا نودعها شيئاً إلا وتحوله إلى جسمها ؟ .

أسامعة أنت هذا النداء ، وهذا العويل وهذا الضجيج وهذا البكاء ،
أم أنت كالأقوياء من البشر تمتد إليهم الأكف فلا يلتفتون ، وتتصاعد
نحوهم الأصوات فلا يسمعون ؟ .
أسامعة أنت يا حياة للسامع ؟ .

رجوع الحبيب

ما جاء الليل حتى انهزم الأعداء ، وفي ظهورهم تخديش السيوف
ووخز الرماح ، فعاد الظافرون حاملين ألوية الفخر ، منشدين أهازيج
النصر ، على توقيع حوافر خيولهم المتساقطة كالمطارق على حصباء
الوادي .

أشرفوا على الجبهة وقد طلع القمر من وراء قم الميزاب ، فظهرت تلك
الصخور الباسقة متشاحنة مع نفوس القوم نحو العلاء ، وباتت غابة الأرز
بين تلك البطاح كأنها وسام مجد أثيل علقته الأجيال الغابرة على صدر
لبنان .

ظلوا سائرين وأشعة القمر تتلمع على أسلحتهم ، والكهوف البعيدة
تتقلد تهليلهم ، حتى إذا ما بلغوا جبهة العقبة أوقفهم سهيل فرس واقف
بين الصخور الرمادية كأنه قُدَّ منها . فاقربوا منه مستطلعين ، وإذا بجثة
هامدة مرتمية على أديم التراب المجدول بنجيع الدماء ، فصرخ زعيم القوم
قائلاً « أروني سيف الرجل فأعرف صاحبه » . فترجل بعض الفرسان
فأحاطوا بالمصروع مستفسرين . وبعد هنيهة التفت أحدهم نحو الزعيم
وقال بصوت أجش : « وقد عانقت أصابعه الباردة قبضة السيف
بشدة ، فمن العار أن ننزعه » .

وقال آخر : « قد لبس السيف غمداً من الدماء ، فاخفى فولاده »

وقال آخر : « قد تجمدت الدماء على الكف والقبضة ، وأوثقت الشفرة بالزند وصيرتهما واحداً » .
فترجل الزعيم واقترب من القتييل قائلاً : « أسندوا رأسه ودعوا أشعة الشمس ترينا وجهه » ففعلوا مسرعين ، وبان وجه القتييل من وراء نقاب الموت ظاهرة عليه ملامح البطش والبأس والتجلد .. وجه فارس قوى يتكلم بلا نطق عن شدة رجولته . وجه متأسف فارح ، وجه من لاقى العدو عابساً وقابل الموت مبتسماً ، وجه بطل لبناني حضر موقعة ذلك النهار ورأى طلائع الاستظهار ، لكنه لم يبق لينشد مع رفقاه أهازيج النصر .

ولما أزاحوا كوفيته ومسحوا غبار المعمة عن وجهه المصفر ، زعر الزعيم وصرخ متوجهاً : « هذا ابن الصعبي ! فيالللخسارة ! » فردد القوم هذا الاسم متأوهين ، ثم سكتوا كأن قلوبهم السكرى بنحمر النصر قد فاجأها الصحو ، فرأت خسارة هذا البطل هي أجسم من مجد التغلب وعز الانتصار . ومثل تماثيل الرخام أوقفهم هول المشهد وأيس ألسنتهم فسكتوا ، وهذا كل ما يفعله الموت في نفوس الأبطال ، فالبكاء والتحيب حريان بالنساء ، والعيويل والصراخ خليقان بالأطفال ، ولا يجمل برجال السيف غير السكوت المملوء هيبة ووقاراً .. ذلك السكوت الذي يقبض على القلوب القوية مثلما تقبض مخالب النسر على عنق الفريسة .. ذلك السكوت الذي يترفع عن الدموع والعيويل ، فيزيد بترفعه البلية هولاً وقساوة .. ذلك السكوت الذي يهبط بالنفس الكبيرة من قمم الجبال إلى أعماق اللجج .. ذلك السكوت الذي يعلن مجيء العاصفه ، وإن لم تجيء

كان هو أشد فعلا منها .

خلعوا أثواب الفتى المصروع ليروا أين وضع الموت يده ، فبانت كلوم الشفار في صدره كأنها أفواه مزبدة تتكلم في هدوء ذلك الليل عن هم الرجال . فاقترب الزعيم وجثا مستفحصاً فوجد دون سواء منديلاً مطرزاً بخيوط الذهب مربوطاً حول زنده ، فتأمله سرّاً وعرف اليد التي غزلت حريره ، والأصابع التي حاكت خيوطه . فستره بالأثواب وتراجع قليلاً إلى الوراء حاجباً وجهه المنقبض بيده المرتعشة .. تلك اليد التي كانت تزيج بعزمها رؤوس الأعداء قد ضعفت وارتجفت وصارت تمسح الدموع ، لأنها لامست حواشي منديل عقدت أطرافه أصابع محبوبه حول زند فتى جاء ليشهد يوم الكريهة مدفوعاً ببسالته ، فصرع وسوف يرجع إليها محمولاً على أكف رفاقه . وبينما كانت نفس الزعيم تتراوح بين مظالم الموت وخفايا الحب قال أحد الواقفين : « تعالوا نحفر له قبراً تحت تلك السنديانة فتشرب أصولها من دمه ، وتتغذى فروعها من بقاياها فتزداد قوة ، وتصير خالدة وتكون له رمزاً يمثل هذه الطلول بطشه وبأسه» .

فقال آخر : « لنحمله إلى غابة الأرز ونقبره بقرب الكنيسة ، فنظل عظامه محفورة بظل الصليب إلى آخر الدهر » .

وقال آخر : « هنا اقبروه هنا حيث جبل التراب بدمائه ، واتركوا سيفه يمينه ، واغرسوا رمحه بجانبه ، وانحروا حصانه على قبره ، ودعوا أسلحته تؤنسه في هذه الوحدة » . وقال آخر : لاتلحدوا سيفاً مضرجا بدم الأعداء ، ولا تنحروا مهراً يخوض المنايا ، ولا تتركوا في الوعر

سلاحاً تعود هز الأُكف وعزم السواعد ، بل حملوها إلى ذويه لأنها خير ميراث . « وقال آخر : تعالوا نجثو مصلين حوالبه صلاة الناصري ، فتغفر له السماء وتبارك انتصارنا » . وقال : « لرفعه على الأكتاف جاعلين له الرماح والتروس نعشاً ، فنطوف به في هذا الوادي منشدين أهازيح النصر فيشاهد أشلاء الأعداء ، وتبتسم شفاه جراحه قبل أن يخرسها تراب القبر » . وقال آخر : « تعالوا نعليه سرج جواده ، ونسندة بجماجم القتلى ، ونقلده رمحه ، وندخله الأحياء ظافراً فهو لم يستسلم للمنية إلا بعد أن حملها من أرواح الأعداء حملاً ثقيلاً » . وقال آخر : « تعالوا نودعه لحف هذا الجبل فيكون له صدى الكهوف نديماً ، وخرير السواقي مؤنسا ، فترتاح عظامه في برية يكون فيها وقع أقدام الليالي خفيف الوطأة » . وقال آخر : « لاتغادروه ههنا ففي البرية وحشة مملة ووحدة قاسية ، بل تعالوا ننقله إلى جبانة القرية فيكون له من أرواح جدودنا رفاق تناجيه في سكينة الليل ، وتقص عليه أخبار حروبهم وأحاديث أمجادهم » . فتقدم الزعيم إذ ذاك إلى وسط رجاله وأسكتهم بإشارة ، ثم قال متنهداً : « لا تزعجوه بذكرى الحروب ، ولا تعيدوا على مسامع روجه الحائمة فوق رؤوسنا أخبار السيوف والرماح ، بل تعالوا نحمله بسكينة وهدوء إلى مسقط رأسه . ففي ذلك الحى نفس ساهرة تترقب قدومه .. نفس صبية تنتظر رجوعه من بين الأسنة . فلنعيده إليها كيلا تحرم نظرة من وجهه وقبلة من جبينه » .

حملوه على المناكب مطأطئي الرؤوس خاشعي العيون ، مشوا

— ١٢٢ —

بسكينة محزنة يتبعهم فرسه الكئيب يجر مقوده على الأرض ويصهل من وقت إلى آخر ، فتجيبه الكهوف بصداها ، كأن للكهوف أفئدة تشعر مع البهيم بشدة الضيم والأسى .

بين أضلع ذلك الوادى حيث أشعة القمر تسترق خطواتها ، سار موكب النصر وراء موكب الموت ، وقد مشى أمامهما طيف الحب ساحباً أجنحته المكسورة .

جمال الموت

مرفوعة إلى M. E. H

دعوني أنم فقد سكرت نفسي بالمحبة . دعوني أرقد فقد شبعت روحي
من الأيام والليالي . أشعلوا الشموع وأوقدوا المباخر حول مضجعي ،
وانثروا أوراق الورد والنرجس على جسدي ، وعفروا بالمسك المسحوق
شعري ، وأهرقوا الطيوب على قدمي ، ثم انظروا واقرأوا ما تخطه يد
الموت على جبهتي . خلوني غارفاً بين ذراعي الكرى فقد تعبت أجفاني
من هذه اليقظة . اضربوا على القيثارات ودعوا رنات أوتارها الفضية
تتمايل في مسامعي . انفخوا الشبابات والنايات وحيكوا من أنغامها العذبة
نقاباً حول قلبي المتسارع نحو الوقوف . ترنموا بالأغاني الرهاوية
وابسطوا من معانيها السحرية فراشاً لعواطفى ، تأملوا وانظروا شعاع
الأمل في عيني .

امسحوا الدموع يارفاقى ، ثم ارفعوا رؤوسكم مثلما ترفع الأزهار
تيجانها عند قدوم الفجر ، وانظروا عروسة الموت منتصبه كعمود النور
بين مضجعي والفضاء .. أمسكوا أنفاسكم وأصغوا هنيهة واسمعوا معي
حفيف أجنحتها البيضاء . تعالوا ودعوني يا بنى أمى ! قبلوا جبهتي بشفاه
مبتسمة . قبلوا شفتى بأجفانكم وقبلوا أجفاني بشفاهكم . قربوا

الأطفال إلى فراشي ودعوهم يلامسوا عنقي بأصابعهم الوردية الناعمة .
قربوا الشيوخ ليباركوا جبهتي بأيديهم الذابله المتجمدة . دعوا بنات الحى
يقتربن وينظرن خيال الله فى عيني ، ويسمعن صدى نغمة الأبدية
متسارعة مع أنفاسى .

الانفصال — ها قد بلغت قمة الجبل فسبحت روحى فى فضاء الحرية
والانعقاد . قد صرت بعيداً بعيداً يا بنى أمى فالحجبت عن بصيرتى
جبهات الطلول وراء الضباب ، وغمرت خلايا الأودية ببحر السكون ،
وامحت السبل والممرات بأكف النسيان ، وتوارت المروج والغابات
والعقبات وراء أشباح بيضاء كغيوم الربيع ، وصفراء كشعاع الشمس ،
وحمراء كوشاح المساء . قد تضعضعت أغاني أمواج البحر ،
واضمحلت ترنيمه السواقى فى الحقول ، وسكنت الأصوات المتصاعدة
من جوانب الاجتماع ، فلم أعد أسمع سوى أنشودة الخلود متألفة مع
أميال الروح .

الراحة — اخلعوا نسيج الكتان عن جسدى وكفونى بأوراق الفل
والزنبق . انتشلوا بقاياى من تابوت العاج ومددوها على وسائد من زهر
البرتقال والليمون . لا تندبونى يا بنى أمى بل أنشدوا أغنية الشباب
والغبطة . لا تدر فى الدموع يا ابنة الحقول بل ترمنى بموشحات أيام الحصاد
والعصير . لا تغمروا صدرى بالتأوه والتنهيد بل ارسموا عليه بأصابعكم
رمز المحبة ووسم الفرحة . لا تزعجوا راحة الأثير بالتعزيم والتكهين بل
دعوا قلوبهم تهلل معى بتسيحة البقاء والخلود . لا تلبسوا السواد حزناً
على بل تردوا بالبياض فرحاً معنى ، ولا تتكلموا عن ذهابى

بالغصات بل أغمضوا عيونكم تروني بينكم الآن وغداً وبعده . مددوني على أغصان مورقة ، وارفعوني على الأكتاف وسيروا بي ببطء إلى البرية الخالية . لا تحملوني إلى الجبانة لأن الزحام يزعج راحتي ، وقضضة العظام والجماجم تسلب سكينه رقادي . احملوني إلى غابة السرو واحفروا لي قبراً في تلك البقعة حيث ينبت البنفسج بجوار الشقيق . احفروا قبراً عميقاً كيلا تجرف السيول عظامي إلى الوادي . احفروا قبراً وسيعاً لكي تجيء أشباح الليل وتجلس بجانبى . اخلعوا هذه الأثواب ودلوني عارياً إلى قلب الأرض . مددوني ببطء وهدوء على صدر أمي . أغمروني بالتراب الناعم وألقوا مع كل حفنة قبضة من بذور السوسان والياسمين والنسرين فتنبت على قبري ممتصة عناصر جسدي ، وتنمو ناشرة في الهواء رائحة قلبي ، وتتعالى رافعة في وجه الشمس سرائر راحتي ، وتتمايل مع النسيم مذكرة عابر الطريق بماضي أميالي وأحلامي . اتركوني الآن يا بني أمي .. أتركوني وحدي أسير بأقدام خرساء مثلما تسير السكينة في الأودية الخالية . دعوني وحدي وتفرقوا عني بهدوء مثلما تفرق أزهار اللوز والتفاح عندما تنثرها أنفاس نيسان . ارجعوا إلى منازلكم فتجدوا هناك ما لم يستطع الموت أن يأخذه مني ومنكم . اتركوا هذا المكان ، فالذي تطلبونه صار بعيداً بعيداً عن هذا العالم ..

أغاني — أغنية

في أعماق نفسي أغنية لا ترتدى الألفاظ ثوباً ، أغنية تقطن حبة
قلبي ، فلا تريد أن تسيل مع الحبر على الورق . وتحيط بعواطفى كغلاف
شفاف ، فلن تنسكب على لساني كالرضاب . كيف أتهددها وأنا أخاف
عليها من دقائق الأثير ؟ ولمن أنشدها وقد تعودت سكنى بيت نفسي
فأخشى عليها من خشونة الآذان ؟ إن نظرت إلى غنى رأيت خيال
خيالها ، وإن لمست أطراف أصابعى شعرت باهتزازاتها . أعمال يدي
تبينها مثلما تعكس البحيرة لمعان النجم ودموعى تبيحها كما تبيح قطرات
الندى سر زهرة الورد عندما تبعثرها الحرارة السكينة ويطويها الضجيج ،
وترددها الأحلام وتخفيها اليقظة . هي أغنية الحب أيها الناس ، فأى
إسحق ينشدها بل أى داود يرتلها ؟ . هي أعبق من أنفاس زهرة
الياسمين ، فأية حنجرة تستعيددها ، وأصون من سر العذارى فأية أوتار
تستبيحها ؟ .

من يجمع بين قواصف البحر وتغريدة البلبل ، ويقرن العواصف بتهددة
الطفل ، أى بشرى ينشد أغنية الآلهة ؟ .

أغنية الموج

أنا والشاطئ عاشقان ، يرقبهما الهوى ويفصلهما الهواء . أجيء من وراء الشفق الأزرق كيما أمزج فضة زبدى بذهب ماله ، وأبرد حرارة قلبه برضائي . عند الفجر أتلو شرع الغرام على مسامع حبيبي فيضمنني إلى إلى صدره . وفي المساء أترنم بصلاة الشوق فيقبلني . أنا لجوج جزوع وحبيبي حليف صبر وأليف تجلد ، يأتي المد فأعانق حبيبي ، ويعقبه الجزر فأترامي على أقدامه . كم رقصت حولي بنات البحر عندما كن يطلعن من الأعماق ويجلسن على الصخور ليتفرجن على النجوم . وكم سمعت المحب يشكو الغرام لذات حسن فساعدته على التأوه والتنهد . وكم نادمت الصخور وهي جامدة وداعبتها ضاحكا ولم تبتسم . وكم خلصت من اللجة أجساداً ونجئت بها إلى الأحياء . وكم سرقت من الأعماق درأً أهديته إلى ربات الجمال .

في سكينه الليل عندما تعانق المخلوقات طيف الكرى ، أسهر مترنماً تارة متنهداً أخرى . ويحي لقد أتلفني السهر ، ولكن أنا محب وحقيقة الحب يقظة . هذه حياتي وذا ما عشت أصنعه .

أغنية المطر

أنا خيوط فضية تطرحني الآلهة من الأعالي فتأخذني الطبيعة وتنمق بي الأودية . أنا لآلىء جميلة نثرت من تاج عششروت فسرقتنى ابنة الصباح ورصعت بي الحقول ، أنا أبكى فبتسم الطلول ، وأتضع فترتفع الأزهار . الغيمة والحقل عاشقان وأنا بينهما رسول مسعف أنهمل فأبرد غليل هذا وأشفى علة تلك . صوت الرعد وأسياف البرق تبشر بقدومي ، وقوس القزح يعلن نهاية سفرتي .. كذا الحياة الدنيا تبتدىء بين أقدام المادة الغضبي وتنتهى على أكف الموت الهادئ . أصعد من قلب البحيرة وأسير على أجنحة الأثير ، حتى إذا ما رأيت روضة جميلة سقطت وقبلت ثغور أزهارها وعانقت أغصانها . فى السكينة أطرق بأناملى اللطيفة بلور النوافذ فتؤلف تلك الطرقات نغمة تفقهها النفوس الحساسة . حرارة الهواء تلدنى وأنا أقتل حرارة الهواء .. كذا المرأة التى تتغلب على الرجل بقوة استمدتها من الرجل . أنا تنهدة البحر ، أنا دمعة السماء ، أنا ابتسامة الحقل . كذا الحب تنهدة من بحر العواطف ، ودمعة من سماء التفكير ، وابتسامة من حقل النفس .

أغنية الجمال

أنا دليل الحب ، أنا خمرة النفس ، أنا مأكّل القلب ، أنا وردة أفتح
قلبي عند فتوة النهار ، فتأخذني الصبية وتقبلني وتضعني على صدرها .
أنا بيت السعادة ، أنا مصدر الفرح ، أنا مبدأ الراحة . أنا ابتسامة لطيفة
على شفתי غادة ، يرانى الشاب فينسى أتعابه ، وتصير حياته مسرح
أحلام لذيذة . أنا موحى الشعراء وهادى المصورين ومعلم الموسيقيين .
أنا نظرة فى عين طفل تراها الأم الحنونة فتسجد وتصلى وتمجد الله .
تجلت لآدم بجسم حواء فاستعبده ، وظهرت لسليمان فى قد حبيته
فصيرته حكيمًا وشاعرًا . ابتسمت لهيلانة فخربت تزوادة ، وتوجت
كليوباترا فعم الأنس فى وادى النيل . أنا كالدهر أبنى اليوم وأهدم غدًا .
أنا الله أحيى وأميت . أنا أرق من تنهدة زهرة البنفسج ، أنا أشد من
العاصفة . أنا حقيقة يا أيها الناس .. أنا حقيقة وهذا خير ما تعلمونه .

أغنية السعادة

الإنسان حبيبي وأنا حبيته ، أشتاق إليه ويهيم بي . ولكن أواه ! الى في محبته شريكة تشقيني وتعذبه ، وضرة طاغية تدعى المادة تتبعنا حيث نذهب ، وتفرقنا كالرقيب . أطلب حبيبي في البرية تحت الأشجار وبقرب البحيرات فلا أجده ، لأن المادة قد غرته وذهبت به إلى المدينة إلى الاجتماع والفساد والشقاء . أطلبه في معاهد المعرفة وفي هياكل الحكمة فلا أجده ، لأن المادة .. تلك التي ترتدى التراب قد قادتني إلى معازل الأنانية حيث يقطن الانهماك . أطلبه في حقل القناعة فلا أجده ، لأن عودتي قد قيدته في مغائر الطمع والشراهة . أناديه عند الفجر عندما يتسم المشرق فلا يسمعني ، لأن كرى الاستمساك قد أثقل عينيه . أداعبه في المساء إذ تسود السكينة وتنام الأزهار فلا يحفل بي ، لأن انشغافه بما أتى الغد يشغل ضميره . حبيبي يحبني .. يطلبني في أعماله ، وهو لن يجدني إلا في أعمال الله . يروم وصالي في صرح المجد الذي بناه على جماجم الضعفاء وبين الذهب والفضة ، وأنا لا أوافيه إلا في بيت البساطة الذي بنته الآلهة على ضفة جدول العواطف . يريد تقبيلي أمام الطغاة والقتلة ، وأنا لا أدعه يلثم ثغري إلا في الوحدة بين أزهار الطهر . بيتغى الحيلة وسيطاً بيننا ولا أطلب وسيطاً إلى العمل المنزه .. العمل الجميل . قد تعلم حبيبي الصراخ والضجيج من عدوتي المادة ، وأنا سوف أعلمه أن يذرف دمعة استعطاف من عين نفسه ، ويتهد تنهدة استكفاء ، حبيبي لي وأنا له .

أنشودة الزهرة

أنا كلمة تقولها الطبيعة ثم تستردها وتخفيها طي قلبها ثم تقولها . أنا نجم
هبط من الخيمة الزرقاء على بساط أخضر . أنا ابنة العناصر التي حبل بها
الشتاء وتمخض بها الربيع ورباها الصيف ونومها الخريف . أنا هدية
المحبين .. أنا إكليل العرس .. أنا آخر عطية من حي إلى ميت . عند
الصباح أتعاون والنسيم على إعلان مجيء النور ، وفي المساء أشارك مع
الطيور بوداعة . أتمايل في السهول فأزيناها ، وأتنفس في الهواء فأعطره
أضخم الكرى فترمقني عيون الليل العديدة ، وأطلب اليقظة لأحدق بعين
النهار الوحيدة . أنا أشرب خمرة الندى ، وأسمع أغاني الشحاريسر ،
وأرقص على تصفيق الأعشاب . أنا أنظر إلى العلو دائماً كي أرى النور
ولا أرى خيالي ، وهذه حكمة لم يتعلمها الإنسان بعد .

نشيد الإنسان

« وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » .

(القرآن الشريف)

أنا كنت منذ الأزل ، وها أنا ذا ، وسأكون إلى آخر الدهر وليس
لكياني انقضاء . سبحت في فضاء اللانهاية وطرت في عالم الخيال
واقتربت من دائرة النور الأعلى ، وها أنا الآن سجين المادة . سمعت تعاليم
كنفوشيوس وأصغيت لحكمة برهما وجلست بقرب بوذا تحت شجرة
المعرفة ، وها أنا الآن أغالب الجهل والجحود . كنت على الطور إذ تجلى
« يهوه » لموسى ، وفي عبر الأردن فرأيت معجزات الناصري ، وفي
المدينة فسمعت أقوال رسول العرب ، وها أنا الآن أسير الحيرة .
شاهدت قوات بابل ومجد مصر وعظمة اليونان، ولم أزل أرى الضعف
والذل والصغر بادية في جميع تلك الأعمال . جالست سحرة عين دور
وكهنة آشور وأنبياء فلسطين وما برحت أنشد الحقيقة . حفظت الحكمة
التي نزلت على الهند ، واستظهرت الشعر المنبثق من قلوب سكان جزيرة
العرب ، ووعيت الموسيقى المتجسمة من عواطف أهل المغرب ،
ومازلت أعمى لا أرى ، وأصم لا أسمع . احتملت قساوة الفاتحين
الطامعين ، وقاسيت ظلم الحكام المستبدين ، وعبودية الأقوياء

الباغين ، وما برحت ذاقوة أكافح بها الأيام . شاهدت وسمعت كل ذلك وأنا طفل ، ولسوف أشاهد وأسمع أعمال الشبيبة ومآتيها ، ولسوف أشيخ وأبلغ الكمال وأرجع إلى الله . أنا كنت منذ الأزل ، وها أناذا ، وسأكون إلى آخر الدهر وليس لكياني انقضاء .

صوت الشاعر

١

القوة تزرع في أعماق قلبي ، وأنا أحصد وأجمع السنابل وأعطيها أغماراً للجائعين . الروح يحيى هذه الجفنة وأنا أعصر عناقيدها وأسقيها للظالمين . السماء تملأ هذا السراج زيتاً وأنا أنيره وأضعه في نافذة بيتي من أجل العابرين في ظلمة الليل . أنا فاعل هذه الأشياء لأنني أحيا بها ، وإذا منعني الأيام وغلت يدي الليالي طلبت الموت ، فالموت أخلق بنبي منبوذ في أمته ، وشاعر غريب بين أهله . البشر يضجون كالعاصفة ، وأنا اتهدد بسكينة لأنني وجدت عنف العاصفة يزول وتبتلعه لجة الدهر ، أما التهدة فتبقى ببقاء الله . البشر يلتصقون بالمادة الباردة كالثلج ، وأنا أطلب شعلة المحبة لأضمها إلى صدري فتأكل ضلوعي وتبرى أحشائي ، لأنني ألفت المادة تميت الإنسان بلا ألم ، والمحبة تحييه بالأوجاع . البشر ينقسمون إلى طوائف وعشائر وينتمون إلى بلاد وأصقاع . وأنا أرى ذاتي غريباً في بلد واحد وخارجاً عن أمة واحدة ، فالأرض كلها وطني ، والعائلة البشرية

عشيرتي ، لأني وجدت الإنسان ضعيفاً ومن الصغر أن ينقسم على ذاته ،
والأرض ضيقة ومن الجهل أن تتجزأ إلى ممالك وإمارات . البشر
يتكاتفون على هدم هياكل الروح ويتعاونون على بناء معاهد الجسد ،
وأنا وحدي واقف في موقف الرثاء . على أنني أصغى فأسمع من داخل
صوت الأمل قائلاً « مثلما تجي المحبة القلب البشري بالأوجاع ، كذا
تعلمه الغباوة سبل المعرفة . فالأوجاع والغباوة تؤول إلى لذة عظيمة
ومعرفة كاملة ، لأن الحكمة السرمدية لم تخلق شيئاً باطلاً تحت
الشمس » .

٢

أحن إلى بلادى لجمالها ، وأحب سكان بلادى لتعاستهم ، ولكن إذا
ماهب قومي مدفوعين بما يدعونه وطنية ، وزحفوا على وطن قريبي
وسلبوا أمواله وقتلوا رجاله ويتموا أطفاله ورملوا نساءه ، وسقوا أرضه
دماء بنيه وأشبعوا ضواريه لحوم فتيانه ، كرهت إذ ذاك بلادى وسكان
بلادى .

أتشعب بذكر مسقط رأسى ، وأشتاق إلى بيت ربيت فيه ، ولكن إذا مر
عابر طريق وطلب مأوى في ذلك البيت وقوتاً من سكانه ومنع مطروداً ،
استبدلت تشيبي بالرثاء وشوقى بالسلو وقلت بذاتى : إن البيت الذى
يضمن بالخبز على محتاجه وبالفراش على طالبه ، هو أحق البيوت بالهدم
والخراب . أحب مسقط رأسى ببعض محبتى لبلادى ، وأحب بلادى

بقسم من محبتي لأرض وطني ، وأحب الأرض بكليتي لأنها مرتع
الإنسانية روح الألوهية على الأرض .. تلك الإنسانية واقفة بين
الخرائب ، الساترة قامتها العاربة بالأطمار البالية الذارفة الدموع السخينة
على وجنتيها الذابلتين ، المنادية أبناءها بصوت يملأ الأثير أنة وعويلا ،
وأبناءؤها المشغولين عن ندائها بأغاني العصبية ، منصرفون عن دموعها
بصقل السيوف . تلك الإنسانية الجالسة وحدها تستغيث بالقوم وهم لا
يسمعون ، وإن سمعها فرد واقترب منها . ومسح دموعها وعزاها في
شدائدتها قال القوم ، اتركوه فالدموع لا تؤثر بغير الضعيف . الإنسانية
روح الألوهية على الأرض ، تلك الألوهية السائرة بين الأمم ، المتكلمة
بالحبة ، المشيرة إلى سبل الحياة والناس يضحكون مستهزئين بأقوالها .
تلك التي سمعها بالأمس الناصري فصلبوه ، وسقراط فسموه ، والتي
سمعها اليوم القائلون بالناصرى وسقراط وجأهروا باسمها أمام الناس ،
والناس لا يقدررون على قتلهم ، لكنهم يسخرون بهم قائلين : السخرية
أقسى من القتل وأمر . ولم تقو أورشليم على قتل الناصري فهو حي إلى
الأبد ، ولا اثنا على إعدام سقراط ، فهو حي إلى الأبد ، ولن تقوى
السخرية على مسامعي الإنسانية وتابعي أقدام الألوهية ، فسيحيون إلى
الأبد .. إلى الأبد ..

٣

أنت أخى وكلانا ابن روح واحد قدوس كلى . وأنت مماثلى لأننا
سجينا جسدين جبلا من طينة واحدة . وأنت رفيقى على طريق الحياة
ومسعى فى إدراك كنه الحقيقة المستترة وراء الغيوم . أنت إنسان وقد
أحببتك يا أخى . قل عنى ماشئت فالغد يقضى عليك ، ويكون قولك
قرينة ظاهرة أمام حكمه ، وبينه صائبة لدى عدله . خذ منى ماشئت
فلمست بسالب غير مال لك الحق بقسم منه ، وعقار استأثرت به
لمطامعى ، فأنت خليق ببعضه إن كان يرضيك بعضه .

(تم هذا الكتاب بعونه تعالى)

فهرست

صفحة	
٣	المقدمة.....
٦	دمعة وابتسامة — توطئة
٧	حياته الحب
١٠	حكاية
١٤	في مدينة الاموات
١٦	موت الشاعر
١٨	بنات البحر
٢٠	النفس
٢١	ابتسامة ودمعة
٢٤	رؤيا
٢٥	الجمال
٢٧	الحروف النارية
٢٩	بين الخرائب
٣١	رؤيا
٣٤	الأمس واليوم
٣٧	رحماك يانفس رحماك
٣٩	الأرملة وابنها
٤٢	الدهر والأمة

صفحة	
٤٤	أمام عرش الجمال
٤٦	زيارة الحكمة
٤٨	حكاية صديق
٥١	بين الحقيقة والخيال
٥٣	ياخليلي الفقير
٥٥	مناحة في الحقل
٥٧	بين الكوخ والقصر
٥٩	طفلان
٦١	شعراء المهجر
٦٣	تحت الشمس
٦٥	نظرة إلى الآتي
٦٧	ملكة الخيال
٦٩	يالائمي
٧١	مناجاة
٧٣	المجرم
٧٤	الرفيقة
٧٧	بيت السعادة
٧٨	مدينة الماضي
٧٩	اللقاء
٨٢	مخبات الصدور
٨٦	القوة العمياء
٨٨	منيتان
٩٠	على ملعب الدهر

صفحة	
٩١	تحليلي
٩٣	حديث الحب
٩٥	الحيوان الابكم
٩٧	السلم
٩٩	الشاعر
١٠١	يوم مولدى
١٠٧	الطفل يسوع والحب الطفل
١١١	مناجاة ارواح
١١٥	أيتها الريح
١١٨	رجوع الحبيب
١٢٣	جمال الموت
١٢٦	أغاني — أغنية
١٢٧	أغنية الموج
١٢٨	« المطر
١٢٩	« الجمال
١٣٠	« السعادة
١٣١	أنشودة الزهرة
١٣٢	نشيد الإنسان
١٣٣	صوت الشاعر